﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ [الذاريات: 24 - 30]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام رأسُ المحسنينَ

في هذه الآيات "انتقالٌ من الإنذار والموعظة والاستدلالِ، إلى الاعتبار بأحوال الأُمَم الماضية، المماثلة للمخاطَبين المشركين في الكُفْر وتكذيبِ الرُّسل"[1]، فـ "لمّا بيّن سبحانه بما مَضَى من القَسَم، وما أتبَعه من أنَّه أودع في السَّماوات والأرض وما بينَهُما أسبابًا صالحة للإتيان بما وعدناه من الخير، وما توعَّدنا به من الشَّرِّ؛ دلَّ عليه، وصوَّره بما شوهِد من أحوال الأمم"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾: أصلُ الكَرَم: شَرَفُ الشَّيءِ، يُقالُ: كَرُمَ الشَّيءُ يَكْرُمُ كَرَمًا، أي: شَرُفَ، ورَجُلٌ كَريمٌ، أي: شَريفٌ ذو فَضائِلَ[3]، والإكرامُ والتَّكريمُ: أن يوصل إلى الإنسان إكرامٌ، أي: نَفْعٌ لا يلحُقه فيه غَضاضَة، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئًا كَريمًا، أي: شريفًا[4]، والمُكْرَمُ: الرَّجُلُ الكَريمُ على كلِّ أحَدٍ، ويُقالُ: كَرُمَ الشَّيءُ الكريمُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 356.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/ 278.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ضيف).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ضيف).

كَرَمًا، وكَرُمَ فُلان علينا كَرامة[1]، وسمّاهم الله سبحانه هنا بـ ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾؛ لأنَّ إبراهيم عليه السلام كان يخدمهم[2]، وهم جماعة الملائكة الَّذين قَدِموا عليه، وعلى رأسهم جبريل عليه السلام.

2) ﴿مُّنكَرُونَ﴾: أصلُ (نكر) يدُلُّ على الجَهْلِ بالشَّيءِ، والمُنكر: المَجهولُ، والجَمعُ: مناكيرُ، يُقالُ: أنكرتُ الخَبَرَ ونَكَرتُهُ؛ إذا جَهلته، ولم تَعرِفْه[3]، والنَّكِرَةُ: خِلافُ المَعرفةِ، ويُطلَقُ المُنْكَرُ على المَنْفي، والإنكارُ: نفيُ الشَّيءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ، يُقالُ: أنكرْتُ حَقَّهُ، أي: جَحَدْتُهُ، ونَفَيْتُهُ، وكلُّ ما جهله النّاسُ، وجَحَدوهُ؛ فهو مُنْكَرٌ[4]، والمُرادُ بالمُنكَر في الآية: الَّذي يُنْكِرُهُ غيرُه، أي: لا يَعْرِفُهُ[5].

3) ﴿فَرَاغَ﴾: أصلُ (روغ) يدُلُّ على مَيْلٍ وقِلَّةِ استقرارٍ، يُقالُ: راغَ الثَّعلبُ وغيرُه يَروغُ، وطريقٌ رائغٌ: مائلٌ[6]، وراغَ فلان إلى فلان؛ مال نحوَهُ لأمر يريده منه بالاحتيال، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ٩٣﴾ [الصافات: 93]، أي: مالَ، وحقيقتُه: طلبٌ بِضرْبٍ من الرَّوَغانِ[7]، والمقصود بالرَّوغ في الآية: المَيْلُ في خفيةٍ، والمُرادُ: ذهب إليهم خِفية من ضيفه دون أن يحسّوا بخروجه.

4) ﴿سَمِينٍ﴾: أصلُ (سمن) يدُلُّ على خِلافِ الضُّمرِ والهُزالِ[8]، ومِن ذلك السِّمَنُ: نَقيضُ الهُزال، سَمِنَ يَسمَنُ، ورجلٌ مُسْمِنٌ: سمين، وأسمَنَ الرَّجُلُ: اشترى سَمينًا، أو أُعْطاه، أو ملَّكه، والسُّمنةُ: دواءٌ تُسَمَّنُ به النِّساء[9]، وسمُن الحيوانُ بالعلف: كَثُرَ لحمُه وشحمُه، نقيض هزل[10]، والمُرادُ بالسَّمين في الآية: المُمتلئ بالشَّحم واللَّحم.

5) ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾: أصلُ (قرب) يدُلُّ على خِلافِ البُعْدِ، يُقالُ: قَرُبْتُ منه أقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (كرم).
(2) أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 383.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نكر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 358.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (روغ).
(7) الراغب، المفردات: (روغ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمن).
(9) الخليل بن أحمد، العين: (سمن).
(10) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (سمن).

أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبانًا[1]، والتَّقَرُّبُ: التَّدَنّي إلى شَيءٍ، والتَّوَصُّلُ إلى إنسان بقُرْبةٍ أو بحقٍّ، والإقرابُ: الدُّنوُّ، والتَّقريب: الإدناء، وتَقارَبَ الزَّرعُ؛ إذا دَنا إدراكُه[2]، ومعنى ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾ في الآية: أدناه إليهم، ووضَعَهُ قريبًا منهُم، أي: لم يَنقُلْهُم من مَجلِسهم إلى مَوْضِعٍ آخَرَ، بل جَعَلَ الطَّعامَ بين أيديهم[3].

6) ﴿فَأَوْجَسَ﴾: أصلُ (وجس) كلمةٌ تدُلُّ على إحساسٍ بشيءٍ وتَسَمُّعٍ له[4]، والوَجسُ: الفزَع يقعُ في القَلْب، أو في السَّمعِ من صوتٍ وغيره، والوَجسُ: الصَّوتُ الخَفيُّ، أوْجَسَ القلبُ فَزَعًا: أحَسَّ به[5]، والتَّوَجُّس: التَّسَمُّع إلى الصَّوتِ الخفيِّ، وأوْجَسَ: أحَسَّ في نَفْسه، ولم يُظهِرْ، وهو المُراد في الآية[6].

7) ﴿خِيفَةً﴾: أصلُ (خوف) يدُلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ، يُقالُ: خِفْتُ الشَّيءَ خَوْفًا وخيفَةً، والياءُ مُبدَلَةٌ من واوٍ لمكانِ الكَسرَة[7]، والخَوْفُ: الفَزَعُ[8]، والخيفَةُ: الحالُ الَّتي عليها الإنسان من الخوف[9]، والجَمعُ خيفٌ[10]، فالخيفة هنا معناها: حالُ الخوف والخشية[11].

8) ﴿صَرَّةٍ﴾: أصلُ (صرّ) يدلُّ على الصَّوْتِ، من ذلك الصَّرَّةُ: شِدَّةُ الصّياحَة[12]، يُقالُ: صَرَّ العُصْفور يَصِرُّ؛ إذا صاحَ، وصَرَّ الجُنْدُب يَصِرُّ صَريرًا، وصَرَّ البابُ يَصِرُّ، وكُلُّ صَوْتٍ شِبْهُ ذلكَ؛ فَهوَ صَريرٌ؛ إذا امتدَّ، فإذا كانَ فيهِ تَخْفيفٌ وترجيع في إعادَةٍ؛ ضوعِف، كقولكَ: صَرْصَرَ الأخْطَبُ صَرْصَرَةً، فالصَّرَّة أشدُّ الصّياحِ تَكونُ في الطّائِرِ والإنسان وغَيرهما[13]، والصَّرَّةُ: الشِّدَّةُ مِن كرْبٍ وغيره[14]، والمُرادُ بها في الآية: الضَّجَّة،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(2) الخليل، العين، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 359.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجس).
(5) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (وجس).
(6) لسان العرب، لسان العرب: (وجس).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوف).
(8) ابن عباد، المحيط في اللغة: (خوف).
(9) الراغب، المفردات: (خوف).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(11) المراغي، تفسير المراغي: 9/ 124.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرّ).
(13) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صرر).
(14) الجوهري، الصحاح: (صرر).

وشِدَّةُ الصّياحِ، وفي صيحة وكرب من الصَّرير قد أحاط بها[1]، ويحتمل أن تكون امرأة الخليل ﷺ قد أقبلت "في جماعةِ نِسوةٍ يَتَبادَرْنَ نظرًا إلى الملائكة"[2]، وهذا المعنى مأخوذ من الصَّرَّة، بمعنى: الجماعة المُنْضَمِّ بعضُهم إلى بعض، كأنَّهم صُرّوا، أي: جُمِعوا في وعاءٍ[3].

9) ﴿عَقِيمٌ﴾: أصلُ (عقم) يدُلُّ على غُموضٍ وضيقٍ وشِدَّةٍ، يُقال: عُقِمَتِ المَرأةُ عَقْمًا، وهي مَعْقومَةٌ وعَقيمٌ، وفي الرَّجُلِ أيضًا: عُقِمَ، فهو عَقيمٌ ومَعْقومٌ[4]، والرّيحُ العقيمُ الَّتي لا يَكونُ معها لَقَحٌ، أي: لا تأْتي بمَطَرٍ إنَّما هي ريحُ الإهلاك[5]، والعقيم ما لا خير فيه ولا طائل، قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج: 55]، أي: لا هواء فيه[6]، والمقصود بالعقيم هنا: الَّتي لا تلدُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مبالغةُ إبراهيمَ ﷺ في إكـرام ضَيْفِه

قد آتاك يا رسولَ اللّه حديثُ ضيف إبراهيم، فحاجِجْ به أولَئِكَ، وخاصِمهم به، أو: لم يأتِك بعدُ حديث ضيف إبراهيم، ولكن سيأتيك، فإذا أتاك؛ فحاجِجْ على أولَئِكَ الكفرة به[7].

وذلك أنَّهُ حين دخل ذلك الضَّيف الكريم على إبراهيم ﷺ ألقوا تحيَّة الإسلام قائلين: نُسَلِّم عليك سلامًا تَطمئِنُّ به نفسُك، فردَّ عليهم بأفضل من تحيَّتهم، فقال: سلامٌ عليكم أيُّها الضَّيف الكريم، الَّذين شرَّفتُمونا بالنُّزول علينا، مع أنَّنا لا نعرفكم مِن قَبل، فتسلَّل بتلطُّفٍ غير لافت إلى أهله - بعدَ تقديم التَّحايا والمؤانسة للضَّيف

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 464.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (صدى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عقم).
(6) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقم).
(7) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 104.

الكرام - فذَبح عجلًا بَدينًا طيِّب اللَّحم وفير الشَّحم، فشواه، وأقبل به إليهم، وهو يظنُّهم أضيافًا من بني آدم، فأدناهُ منهم؛ ليأكلوا منهُ مبالغةً في الإكرام والحفاوة، ولم يُكَلِّفْهُم الانتقالَ هُم إليه، وعزم عليهم، وحضَّهم على أن يأكلوا، لكنَّهم امتنعوا عن الأكلِ، ومعلومٌ في أعراف النّاس أنَّ الامتناع عن أكلِ المُضيف بادرةُ نيَّةِ السّوء، وأنَّ الأكل من طعامه يبعث الطُّمأنينة في نفسه، فلمّا امتنعوا عن الأكْلِ من العجل؛ أثار امتناعُهم توجُّسَه وخوفَه ممّا عساه قد يكون السَّببَ في ذلك الامتناع.

وحينئذٍ تَدارَكوهُ مِن الخوف، فكشَفوا عن حقيقَتِهم، وأنَّهم ملائكةُ اللّه تعالى، وأنَّهم جاؤوه ببشارة الولدِ الثّاني، وهو إسحاقُ عليه السلام، وبشَّروه كذلك أنَّ هذا الغلام سيكون عليمًا، وحينئذٍ هرولت زوجُه سارة في جلَبَةٍ، وضربَت وجهها فِعلَ المتعجِّب الدَّهِش، مُبْدِيةً أسباب عجَبِها من أنَّها في الأصل عاقرٌ لا تحمل، ولا تلد، ومع ذلك فَهيَ عجوزٌ قد بلغت سنَّ اليأس، فكيف يكونانِ في امرأةٍ، وتحبِلُ، وتَلِدُ؟.

فجاءه ردُّ الضَّيف المكرَمين يذكِّرها بقدرة اللّه تعالى المُطْلَقَة، قائلين لها بأنَّ ذلك هو تقديرُ اللّه تعالى وأمرُه، وهو الحكيم في تقاديره، العليم بوجوه الخير لعباده.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل هذه الآيات عمّا قبلها:

تـــدارُكُ اللـه تَـعـالى عـبـادَهُ المؤمنين بأسبابِ الاستبشارِ

فُصِل قول اللّه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عمّا قبلهُ؛ لأنَّه مستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا[1]؛ للانتقالِ بالنَّبيِّ ﷺ من هذا الجوِّ الخانق مع قومه إلى شَذا هذه الرّيح الطَّيِّبة، الَّتي تَهبُّ عليه من ذِكرى نبيٍّ كريم هو إبراهيم عليه السلام، وما كان له عند اللّه من فضلٍ وإحسان.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 356.

ففي مجيء هذا الحديث - منقطعًا عمّا قبله غيرَ معطوف عليه- عزلٌ تامٌّ له عن الحديثِ السّابق؛ حتّى لا يَدخل عليه شيءٌ منه، وحتّى لا يَطلَّ عليه وجهٌ من تلك الوجوه المنكَرة، الَّتي كان يراها النَّبيُّ الكريم من قومه[1].

بلاغةُ الاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ﴾:

لا سبيل إلى العِلم بأخبار المرسَلين إلّا الوحيُ

الاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ مليءٌ بالإشارات البليغة، فهو أوَّلًا يُثير الشَّوق إلى معرفة تفاصيل هذا الحديث الفخْم، ويوحي بأنَّه حديثٌ ذو تفاصيلَ مهيبةٍ عجيبة، دالَّة على القدرة الإلهيَّة والعظمة الرَّبّانيَّة، فإنَّ مَطْلع هذه القصَّة يدلُّ على "فضل إبراهيم الخليل ﷺ؛ إذ ابتدأ البيان القرآني قِصَّته بما يدُلُّ على الاهتمام بشَأْنِها، والاعتناء بها"[2]، وخلاصةُ الحديث: هبةُ اللّه تعالى لزوجين كبيرَيْنِ الولدَ المبارَكَ الميمون، و"هو إسحاق؛ لأنَّه هو ابن سارة، وهو الَّذي وقعت البِشارة به في هذه القصَّة في التَّوراة"[3]، وفي هذا الاستفهام ثانيًا "تسليتُه ﷺ على ما لَقيَه من تكذيب قومه، ويَتبَعُ ذلك تعريضٌ بالسّامعين من قومه حين يُقرأ عليهم القرآنُ، أو يبلِّغهم بأنَّهم صائرون إلى مثل ذلك العذاب؛ لاتِّحادِ الأسباب، ومثلُه قوله تعالى: ﴿*وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ [ص: 21]، وهذا الأسلوب تُفتتَح به الأخبار الفَخْمَةُ المُهِمَّة"[4].

وفي هذا الاستفهام ثالثًا "تقريرٌ؛ لِتجتمع نفسُ المخاطَب، وهذا كما تبدأ المرءَ إذا أردتَ أن تُحدِّثه بعجيبٍ، فتقرِّره هل سَمِعَ منك أم لا؟ فكأنَّك تقتضي منه أن يقول: لا، ويَستَطعِمُك الحديثَ"[5]، و"تنبيهٌ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 515.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 810.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 360.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 357.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 177.

على أنَّه ليس مِن علم رسول الله ﷺ، وإنَّما عرفه بالوحي"[1]، وبيانُ ذلك "أنَّه أُهلِك بسبب التَّكذيب مَن أُهلِك"[2].

وكونُ الاستفهام للتَّقرير يقتضي في هذا المقام أن تكونَ ﴿هَلۡ﴾ "بمعنى (قد)، كما في قوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان: 1]"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿أَتَىٰكَ﴾ دون (جاءك):

عبَّر النَّظم الكريم بفعل الإتيان في ﴿أَتَىٰكَ﴾ دون فعل المجيء (جاءك)؛ لأنَّ "الإتيان: مَجيءٌ بسهولة"[4]، فهو أخصُّ من المجيء، وقد كان إتيانُ حديث ضيف إبراهيم عليه السلام رسولَ الله ﷺ يسيرًا، لم يتكَّلف فيه رسولُ الله ﷺ مشقَّةً، وفي ذلك إشارة إلى يُسر الحصول على عِلْمِ الدّين وقصص الأنبياء عليهم السلام من القرآن الكريم.

حصول الموفَّقين على عِلم الدّين وقصص الأنبياء عليهم السلام من القرآن الكريم يسيرٌ

كذلك لمّا لَم يكن قد وصَل حديثُ ضيفِ إبراهيم رسولَ الله ﷺ حتّى تلك اللَّحظة، وإنَّما كان سيُلقى إليه بُعيد هذا التَّشويق؛ عُبِّر بالإتيان، وقد غَلَب استعمال فِعل الإتيان لِما بَدَأ، ولمّا يتحقَّق بعدُ، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1]، وقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: 93]، ويغلب استعمال فِعل المجيء؛ لِما قد تحقَّق فعلًا، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: 61]، وقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: 91]، وقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ [الأعراف: 113].

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿حَدِيثُ﴾:

المقصود بحديثِ ضيف إبراهيم عليه السلام، أي: "نَبَؤُهُم الغريب

لا تـزال قصص الأنبياء جديدةً الـعِـبر، جـديـرةً بالتَّحديث بها

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 401.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 104.
(3) القِنّوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 199.
(4) أبو البقاء، الكليات، ص: 34.

العجيبُ، وهم: الملائكةُ الَّذين أرسلهم الله تعالى لإهلاك قوم لوط، وأمَرَهم بالمرور على إبراهيم، فَجاؤوه في صورة أضيافٍ"[1].

وفي التَّعبير عن خبرهم بوصف الـ ﴿حَدِيثُ﴾ إشارةٌ إلى جِدَّته، وأنَّه لِغرابته سيظلُّ حديثًا لا يَبلى، ولا يُملُّ مِن تَرداده؛ لِما فيه من عجائبِ قدرة الله تعالى، فالحَديثُ من الأشياءِ هو المُحْدَثُ[2]، وهو ضِدُّ القَديم[3].

ففي التَّعبير بالحديث في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إيحاءٌ بأهمّيَّته، وعَظَمَتِه، وجَدارته بتجديد الإخبار به والتَّحديث بعجائبه.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ضَيْفِ﴾:

الكريم يحتفي بِنُزَلائه، ويَراهُم ضيوفًا أعزَّة

يقع اسمُ الضَّيف على الواحِدِ والجماعة[4]، "وسُمّي الضَّيف ضيفًا؛ لإضافتِهِ إليك وإنزالِه عليك"[5]، وفي إطلاق القرآن الكريم عليهم وصفَ ﴿ضَيْفِ﴾ هوَ باعتبار ظاهرِ حالِهم عند الخليل عليه السلام، وفيه إيحاءٌ باهتمامِه عليه السلام بإكرامهم، وتوفيتِهم حقوقَ الضّيفان، وهُم نفرٌ من الملائكة الكرام، دخلوا على إبراهيم عليه السلام يُبَشِّرونه بإسحاقَ عليه السلام، ويُهيِّئون الخليلَ عليه السلام لِتَلقّي إهلاك قوم لوطٍ عليه السلام فلا يفزع، وكانوا جماعةً – ثلاثةً أو أكثر – وروِيَ أنَّهم "جبريل وميكائيل وإسرافيل، وأتباعٌ لهم من الملائكة"[6].

فَفي التَّعبير بوصف الـ ﴿ضَيْفِ﴾ هنا إيحاءٌ بحفاوة إبراهيم عليه السلام بهم، وذلك جليٌّ في رَوَغانِه وتلطُّفه في التَّسلُّل إلى أهله لإعداده

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 810.
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (حدث).
(3) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: 1/ 350.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 383.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 369.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 177.

واجبَ الضّيافة، وتقديمه إليهم إكرامًا لنزولهم به ضيوفًا - بحسب ظاهر حالهم - مكرَّمين، وهذا الكرم خَصلة فيه ﷺ، فقد كان يُكنَّى بأبي الضّيفان، وعُرف عنه أنَّه إذا أراد أن يتغدّى، أو يتعشّى؛ خرج الميل والميلين والثَّلاثة، يَطْلُب مَن يأكل معه[1].

نكتةُ إضافة ﴿ضَيْفِ﴾ إلى ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾:

في إضافة ﴿ضَيْفِ﴾ إلى الخليلِ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﷺ تأكيدٌ لعنايته بهم، واعتباره ﷺ إيّاهم ضيوفًا أعزَّة، على الرُّغم مِن عدمِ معرفتِه بهم؛ فرأى لهم حقَّ الضّيافة؛ لأنَّهم ضيفُه هو، وهو في نفسِه المعنيُّ بهم المسؤول عنهم دون سواه؛ ففي الإضافة معنى الاختصاصِ اللُّغوي لا الاصطلاحيِّ.

المُضيف الكريم يرى نفسَه المسؤولَ عن حقِّ الأضياف مهما كثُروا

لطيفةُ التَّصريح بالاسم العلم:

في التَّصريح باسم الخليلِ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﷺ في قوله تعالى: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تَشريفٌ له وتكريم؛ وذلك لِشرف ذِكْرِه ﷺ إيّاه وكريم عطائه له، و"اختار إبراهيم؛ لكونهِ شيخَ المُرْسَلين، كون النَّبيِّ ﷺ على سُنَّته في بعض الأشياء، وإنذار لقومه بما جرى من الضَّيف، ومِن إنزال الحجارة على المُذْنبين المضلّين قوم عاد"[2].

ذِكْرُ الله تعالى أسماءَ أوليائِه في القرآن الكريم تكريمٌ لهم وتشريف

نكتة وصف الضَّيف بـ ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾:

في وصف ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بـ ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ تنويهٌ بمكانة الملائكة الكرام من الله تعالى، وأنَّهم كانوا عنده سبحانه "أهلَ كرم وشرَف"[3]، فـ "الملائكة مقرَّبون عند الله تعالى، كما قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: 26]، وقال: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: 11]"[4].

الملائكة عند الله تعالى مُكَرَّمون، ومن قيَمِ الإيمان إكرامُ الضَّيف، ولو جُهِل

وفيه كذلك تنويهٌ بمكانة الأضياف عمومًا عند إبراهيمَ ﷺ، وأنَّ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 369.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 173.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 384.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 358.

ضيوفه يكونون محلَّ تكريمه؛ كناية عن كرمه ﷺ، وهو ما تقرَّر في صنيعه الكريم معهم، فـ "إبراهيم ﷺ وسارة خَدَماهُم بأنفسهما"[1]؛ ذلك أنَّه «مَن كانَ يُؤْمِنُ باللّه واليَومِ الآخِرِ؛ فَلْيُكْرِم ضَيْفَهُ»[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾، ودلالةُ جمعه:

من أدَبِ الضّيافة إشعارُ الضُّيوف أنَّهُم ذو منزلةٍ عـالـيَـةٍ عـنـدَ مُضيفهم

(أل) في ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ لبيانِ الكمالِ، فـ (أل) توحي بِتمام كرامتهم، ووفرة شرافتهم وعزَّتهم، وكأنَّهم دون سواهم هم المُكرَمون، وكأنَّ وصف المكرمين إذا أُطْلِقَ؛ لا ينصرف إلّا إليهم، ممّا يُبينُ عن منزلتهم عند الله تعالى، ثُمَّ عند إبراهيم ﷺ؛ إذْ بالَغ في إكرامهم حتّى أشعرَهُم بتفرُّدهم في نيْل هذه المنزلة عنده ﷺ.

نكتةُ المخالفة بينَ المَوصوف ووصفه:

من قيم الضّيافة إبـداءُ المضيف اهـتـمـامَـه بكلِّ ضيفٍ على وجهِ الاستقلالِ

أُفْرِدَ ﴿ضَيْفِ﴾ في اللَّفْظِ مع أنَّهم جماعةٌ؛ "إشارة إلى اتِّحاد كلمتهم"[3]، وإن كان لفظُ الضَّيْفِ يُطْلَقُ على المفردِ والجَمعِ، وفي مخالفة النَّظم الكريم بين الموصوف المفردِ لفظًا ﴿ضَيْفِ﴾ ووصفه الجمع ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ بيانٌ لاجتماعهم في الضّيافة، وإفراد كلٍّ في الاحتفاءِ والإكرام، وهكذا يَفْعَل المُضيف الكريم، يخُصُّ كلَّ واحد من أضيافه بحفاوةٍ كبيرة؛ حتّى يُشْعِرَه بأنَّه كأنَّه الضَّيف الوحيد في المجلس، وهكذا يَفعل مع الجميع، فيَدور عليهم مُرحِّبًا ومبجِّلًا ومُحَيِّيًا، ولا يُهمل واحدًا منهم انشغالًا بغيره.

نكتة البَدْء بقصَّة إبراهيم ثُمَّ لوط ﷺ:

البداءَةُ في سَرْد القَصص يكونُ بسَوْق الأنسَبِ فـالأنـسـب للسّياق والمقام

بُدِئت قصصُ هذه السّورة الكريمة بِقصَّة إبراهيم ﷺ، وإن كانت متأخِّرة عن قصَّة عادٍ؛ لأنَّها أقوى في غرض التَّسلية[4]، ولأنَّ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 525.
(2) رواه البخاري في صحيحه برقم: (6018)، ومسلم في صحيحه، برقم: (47).
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 461.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 12.

السّياق هنا للمحسنين، فبَدأ برأس المُحسِنين مِن أهل هذه الأنباء، الَّذي أخبرته الملائكة ﷺ بما سَببُه معهُ، وإن كان على غير العادَةِ.

وأتبع قصَّتَه قصَّةَ لوطٍ ابنِ أخيهِ ﷺ؛ لاتِّصال ما بين قصَّتيهما في الزَّمان، ولمناسبة عذابِهم لِما أقسم به في أوَّل السّورة، فإنَّه سبحانه أمَرَ الذّاريات - وهي الرّياحُ - فاقتلعَتهم بِقُراهُم، وحَمَلَتها، كما تَحمل السَّحابَ، ثُمَّ كبَّتهم فرجَمَتهم[1].

وجه التَّعبير بـ ﴿إِذْ﴾ الظَّرفيَّة:

تَهْيِئَةُ المُخاطَب لِذِكْرِ تَفاصيل الحدَثِ

﴿إِذْ﴾ ظرفٌ يَستَحضر في الخيال صورةَ أحداث المشهدِ المطويِّ في الزَّمن الماضي، ويُهَيِّئُ لِذكر تفاصيله، أي: اذكُر يا أيُّها الرَّسولُ "حين دخلَ ضيفُ إبراهيمَ عليه"[2].

و﴿إِذْ﴾ هنا "ظرفٌ مقيِّدٌ لهذا الحديثِ أو الخبر، الَّذي كان مِنَ الملائكة مع إبراهيم، والمراد بالخبر الَّذي يورده الله ﷻ على النَّبيِّ ﷺ فيما كان بين الملائكة وبين إبراهيم ﷺ، هو هذا الخبر، الَّذي كان في هذا الوقت الَّذي دخلوا عليه فيه"[3].

دلالةُ التَّعبير بالدُّخول، ولطيفةُ صوغِه ماضيًا مجموعًا:

لِلملائكة نواميسُهم وقوانينُهم ولِلبشَر نواميسهم وقوانينُهم

في التَّعبير بمفردة الدُّخول في قوله: ﴿دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ إيحاءٌ بأنَّه تفاجأ بهم؛ وأنَّ لدخولِ الملائكة نواميسَ وقوانينَ تَختلف عن نواميسِ البشَرِ وقوانينِهم؛ وذلك كان من أسبابِ إنكارِه ﷺ في نفسِه إيّاهم، حين قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، فدُخولهم على إبراهيمَ دونَ استئذانٍ دليلٌ على كرمِه، فقَد "كان بيته ﷺ مأوًى للطّارقين والأضياف؛ لأنَّهم دخلوا عليه مِن غير استئذانٍ"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 460.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 525.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 515.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 810.

وفي صوغ ﴿دَخَلُواْ﴾ ماضيًا إشارةٌ إلى أنَّ دخولهم كان فوريًّا ومباشرًا، وأنَّه طويَ سريعًا؛ دلالةً على جِدّيَّتهم في مباشرة المهمَّة الَّتي دخلوا عليه لتَنْفيذِها بلا إبطاءٍ.

وفي الجمع إيحاءٌ باستوائِهم في الدُّخول والجِدّيَّة في التَّنفيذ، واجتماعهم على ذلك، ويُستَأنس لذلك بما ذكرهُ البقاعيُّ في التَّعليل لإفراد ﴿ضَيْفِ﴾ مع أنَّهم جماعة: "عُبِّر عنهم بلفظ الواحد؛ إشارةً إلى اتِّحاد كلمتهم"[1].

نكتةُ تقييدِ دخول الضَّيف بـ ﴿عَلَيْهِ﴾:

في تقييد دخول ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾ مزيدُ تشريفٍ له ﷺ، فإنَّ دخولهم كان عليهِ من بين النّاس.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾:

(الفاء) في جملة: ﴿فَقَالُواْ﴾ فاء التَّعقيب، أي: بُعَيْدَ أن دخلوا؛ ألقَوا تحيَّة الإسلام، ولم يُبْطِئوا بها، هذا ظاهِرُ اللَّفظ، وبه قال بعضُ المفسِّرين[2]، ويمكن أن يكونوا قالوها قبل الدُّخول أصلًا، على حَذو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: 61]، أي: إذا أرَدْتُم دُخولَها؛ "فابدؤوا بالسَّلام على أهلها"[3]، وذلك لأنَّ الآية قبلَها تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: 27]، فيكون معنى الآية: إذ قالوا: سلامًا، فدخلوا، ومثله قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، أي: "إذا أردتُم أن تقوموا إلى الصَّلاة؛ لأنَّه إذا قام إلى الصَّلاة؛ لم يَقْدِر على الغسل"[4].

من آداب دخولِ البيوت المبادرةُ إلى إلقاء السَّلام؛ تطمينًا لأهل الدّار، والتماسًا لِبَرَكَتِه

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 461.

(2) قال الماتريدي: "إنّما أمر بالسّلام بعد الدخول، فعلى ذلك هذا يستأذن للدخول، فإذا أذن له، فدخل، فبعد الدخول يسلِّم عليهم، لأنّه لو سلّم أوّلًا، ثمّ استأذن، احتاج إلى أن يسلِّم ثانيًا إذا دخل، فهذا الّذي ذكرنا أشبه بعمل النّاس وظاهر الآية، واللّه أعلم"، يُنظر: الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 540.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 258.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 2/ 339.

وعلى كلٍّ؛ ففي هذه (الفاء) دعوةُ الدّاخلين إلى المبادرة إلى إلقاء السَّلام؛ تطمينًا لأهل الدّار، وإحياءً لتعاليم الدّين، والتماسًا لبركتها على الدّاخل والمدخول فيهِ والمدخول عليهِ.

دلالةُ صَوْغِ القول ماضيًا مجموعًا:

في صوغِ فعل القولِ (قالوا) ماضيًا إشارة إلى تحقُّق قولِ الضَّيف المكرمين: ﴿سَلَٰمًا﴾، وتأكيدًا لتَسْليمِهم لحظةَ الدُّخول أو قُبيلها مباشرة؛ لأنَّ البَدْءَ بالسَّلام يوفِّر طُمأنينةَ النَّفس، ويَنفي التَّوجُّس؛ لذلك ندب إليه الدّينُ، ورغَّب.

عـلى الـدّاخـل بيتًا التَّسليم عند الدُّخول أو قُبيله؛ لِطَمأنة أهـلـهِ ونَـفْـسِ توجُّسهم

نكتة تنكيرِ ﴿سَلَٰمًا﴾، وتوجيهُ نَصْبِه:

في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمًا﴾، أي: إنَّ الملائكةَ الكرام سلَّموا سلامًا[1]، أو دخلوا "مسالمين غيرَ مُحاربين؛ لِتَسْكُن نفسُه عليه السلام، أو أنَّه دعاءٌ بالسَّلامة له؛ لأنَّ التَّحيَّة بالسَّلام تقتضي السُّكون والأمان"[2]، قال الشاعر:

أظُلَيْمُ إنَّ مُصابَكم رَجُلًا *** أهْدَى السّلامَ تحيَّةً ظُلْمُ[3]

سـلامُ أهـلِ الإيـمـان عظيمٌ فَخيم

وفي السَّلام "يُؤْذِنونه عليه السلام بأنَّهم لا يريدون به سوءًا - بعد أن وقعَ في نفسِه ما وقع من دخولهم عليه هذا الدُّخولَ المفاجئ، من مشاعر الرّيبة، والخوف، وتوقُّع الأذى! كما يشير إلى ذلك ما جاء في قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام في آية أخرى أنَّه قال: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 52]"[4].

وفي تنكير قول: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾: ﴿سَلَٰمًا﴾ إيذانٌ بتفخيم سلامهم عليه وتعظيمه، وأنَّه (سلام)، والتَّقدير: نسلِّم عليك سلامًا مطمئنًّا.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 526.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 369.
(3) البيتُ للحارث المخزومي، يُنظر: يحيى الجبوري، شعر الحارث بن خالد المخزومي، ص: 28.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 516.

دلالةُ التَّعبير بفعل القول ماضيًا:

واضِحٌ أنَّ ردَّ إبراهيم ﷺ على ضَيْفه "ردٌّ مقتضَبٌ موجَز في مقابل تحيَّتهم الموجَزة الخاطفة، وهو يَدُلُّ على ما وقع في نفس إبراهيم ﷺ مِن توجُّسٍ وريبة منهم"[1].

من القيم الَّتي أرشـد إليها القرآن ردُّ تحيَّة المُحَيّي باهتمامٍ مُماثلٍ

وفي التَّعبير بالقول الماضي في جملة: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ دلالةٌ على أنَّ ردَّه ﷺ جاء أيضًا باللِّسان قولًا مسموعًا، وأنَّهم تحقَّقوا سماعَه، وفي صوغه ماضيًا ﴿قَالَ﴾ دلالةٌ على الفَوريَّة في الرَّدِّ، وأنَّه قال قولًا خاطفًا طوي محقَّقًا بقولٍ منهم خاطفٍ محقَّقٍ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿سَلَٰمٌ﴾ ورفعِه:

المبالغةُ في التَّحيَّة نوعٌ مِن كرم الخليلِ ﷺ، وينبغي التَّأسّي به

في رَفْعه ﷺ كلمةَ التَّحيَّة ﴿سَلَٰمٌ﴾ امتثال لأفضل التَّحيَّتَيْنِ المأمور بهما المؤمنون، كما قال الله تعالى: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: 86]، فحيّاهم بأحسنَ مِن تحيَّتهم من حيث كونُه سلامًا مستمرًّا دائمًا؛ إذ بَنى تحيَّتَهُ على جملةٍ اسميَّةٍ ثابتةِ الدَّلالة دائمة العطاء، لا على كونِها مفعولًا لجملةٍ فعليَّة متعلِّقة بزمنٍ يفوتُ[2].

فنصْبُ ﴿سَلَٰمًا﴾ في تحيَّتهم يُؤْذِنُ بأنَّه مفعولٌ به لفعل محذوفٍ – على وجه –، ورفْعُه ﴿سَلَٰمٌ﴾ في تحيَّته يُؤذِن بأنَّه ركنٌ من جملةٍ اسميَّة، والاسميَّةُ أبلغ من حيث ثبوتُها ودوامُها، لا انقضاؤُها وفواتُها كالفعليَّة؛ لذلك كانت تحيَّتُه أبلغَ التَّحيَّتَيْن وأفضلَهما.

وتنكير ﴿سَلَٰمٌ﴾ يؤذِنُ بعظمة هذا السَّلام في باب التَّحايا وفخامته وكماله، "كأنَّه قَصَد أن يُحَيّيهم بأحسن ممّا حَيَّوْه به أخذًا بأدب الله تعالى، وهذا أيضًا من إكرامه لهم"[3]؛ "لهذا قال أهل

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 516.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 125.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 401.

المعاني: إنَّ سلام إبراهيم أبلغُ من سلام الملائكة"[1]، وهذا أيضًا مظهَرٌ من مظاهر كَرَمِه ﷺ.

توجيهُ إعراب ﴿سَلَٰمًا﴾ و﴿سَلَٰمٌ﴾:

ردُّ التَّحيَّة بأحسَنَ منها مِنَ المُبالغة في الأخْذِ بالأدَبِ والإكرامِ

أفاض العلماءُ في توجيه نَصْب الملائكة الكرام كلمةَ ﴿سَلَٰمًا﴾، ورأوا أنَّه نُصِب على المصدر، والتَّقدير: نُسَلِّمُ سلامًا، أو أنَّهم قالوا كلامًا سلامًا؛ سَلِمَ به المتكلِّم مِن أن يَلْغو أو يأثَم، فكأنَّهم لمّا دخلوا عليه؛ فقالوا حُسْنًا؛ سَلِموا مِن الإثم، وحينئذٍ يكون مفعولًا للقول؛ لأنَّ مفعولَ القولِ هو الكلام.

أو أنَّ ﴿سَلَٰمًا﴾ مفعولُ فعلٍ محذوفٍ تقديرُه: نبلِّغك سلامًا، ولمّا قالوا: نُبَلِّغُك سلامًا، ولم يَعلم إبراهيمُ ﷺ أنَّه مِمَّن؟ قال: سلامٌ، أي: إن كان مِن الله تعالى؛ فإنَّ هذا مِنه قد ازدادَ به شَرَفي، وإلّا فقد بَلغني منه سلامٌ وبه شَرَفي، ولا أتشرَّف بِسلامِ غيره[2].

أمّا رفْع ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ فعلى أنَّ المعنى: عليكم سلامٌ، فعَدَلَ به إلى الرَّفع بالابتداء لِقَصْد الثَّبات؛ حتّى تكون تحيَّتُه أحسنَ من تحيَّتهم؛ أخذًا بِمَزيد الأدب والإكرام، وقيل: ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: أمري سَلامٌ[3].

توجيهُ القراءات في قوله ﴿سَلَٰمٌ﴾:

ثـراء المعاني بتعدد القراءات

قَرَأ حَمزَةُ والكِسائيُّ ﴿سِلْمٌ﴾ بِكَسْرِ السّين، وإسْكانِ اللّام مِنْ غَيْرِ ألِفٍ فيهما، وقَرَأ الباقونَ بِفَتحِ السّينِ واللّامِ وألِفٍ بَعْدَها"[4]. فالحجة لمن أثبت وفتح: أنه جعله من التحية والسلام، ومعناه: تسلما منكم تسلمًا. أو يريد: تركناكم تركًا، فكأنه قال: قالوا: تركًا. فردّ عليهم: ترك. ومنه قولهم: لا تكن من فلان إلا سلاما تسلم.

(1) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 200.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 173 بتصرف.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 12.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 290.

معناه: إلا مباينا له متاركًا. فالأول: منصوب على المصدر. والثاني: مرفوع بالابتداء. والحجة لمن حذف الألف، وكسر السين: أنه جعله من الصلح والمسالمة؛ يريد قالوا: نحن سلم[1].

نكتةُ تنكير لفظ ﴿قَوۡمٌ﴾:

تصاريفُ المفردات القرآنيَّة يراعي دلالات جاراتها في السّياق

تنكير كلمة ﴿قَوۡمٌ﴾ في رَدِّ إبراهيم ﷺ: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ يتَّسق مع الجهل بهم، ويلائم وصفَهم بـ ﴿مُّنكَرُونَ﴾؛ إذ لا يتأتَّى تعريفُهم مع الجهل بهم، فيقال مثلًا: سلامٌ أيُّها القوم المنكرون، فيكون في الكلامِ تناقُضٌ، و"رُفِع ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ بإضمار: أنتُم"[2].

نكتة وصف ﴿قَوۡمٞ﴾ بـ ﴿مُّنكَرُونَ﴾:

قصَّةُ ضَيف إبراهيم تُعَلِّمُ المُضيفَ التَّلويحَ لأضيافه بطلب التَّعارُف

وَصْفُ إبراهيمَ ﷺ الـ ﴿قَوۡمٞ﴾ بـ ﴿مُّنكَرُونَ﴾ في ردِّه سلامَ الملائكة، يُشْعِرُ بِصِدق واقعيَّته ﷺ، وقوَّته في التَّعبير عمّا في نفسه، ومثل هذا يُقال في التَّرحيب بالضُّيوف، فيقال لهم: كأنّي بكُم لستُم من أهل هذه البلاد، ونحن نَجْهَلُكُم ونتطلَّع للتَّشرُّف بمعرفتكم، فـ "أُحِبُّ أن تُعَرِّفوني بأنفُسِكم"[3].

فـ "هو كالسُّؤال منه عن أحوالهم؛ ليَعرِفهم، فإنَّ قولك لمن لَقيتَه: أنا لا أعرفك! في قوَّة قولك: عرِّف لي نفسَك، وصِفْها"[4]، وهذا لا يقدح في كرم المُضيف، ولا يَغضُّ من أريحيَّة الضَّيف، بل هذا من بَسْط التَّحيَّة وملاطفة الضَّيف، وهو من لَباقَةِ المُضيف، وحُسْن أدَبِه مع الأضيافِ.

وإنَّما نَكِرهم إبراهيم ﷺ؛ لأنَّه رآهم على غير صورة البَشَر المعهودةِ، وعلى غير صورةِ الملائكة الَّذين كان يَعْرِفُهم، و﴿مُّنكَرُونَ﴾، أي: لا يُعْرَفون، أو يُخافون، يقال: أنكرتُه؛ إذا خفته[5].

(1) ابن خالويه، الحجة، ص: 189.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 526.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 810.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 41.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 370.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

تقريب الطَّعام من الضَّيف حصل بعد إنكاره لهم

قال الله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ﴾ [هود: 70]، وذلك دالٌّ على أنَّ إنكارَهُ إيّاهم كان حاصلًا بعد تقريبِهِ العجلَ منهم، وقال هاهنا: ﴿قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ﴾ بفاءِ التَّعقيب؛ وذلك يقتضي أنَّ تقريب الطَّعام منهم بعدَ حصولِ إنكارهم، ويجوز أن يحصُلَ أوَّلًا عنده منهم نُكْر، ثُمَّ زاد عند إمساكهم عن الأكلِ، والَّذي يدلُّ على هذا هو أنَّهم كانوا على شكلٍ وهيئةٍ غيرِ ما يكون عليه النّاس في العادةِ، وكانوا في أنفُسِهم عند كلِّ أحد مُنْكَرين، واشتركَ إبراهيمُ ﷺ وغيرُه فيه.

معنى (الفاء) في قول ﴿فَرَاغَ﴾:

من أدب القِرى المبادرةُ إلى تقديمه

(الفاء) في قول الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ فاء التَّعقيب، القاطعةُ بكمال كرمه ﷺ، وأنَّه مِن صنف الكُرماءِ البالغِ كرمُهم مبلغَ التَّمام؛ إذ لَم يُبْطئ بالضّيافة، بل أسرع بها، وعجَّل، وعظَّمَها، ولم يحقِّرْها، فكانت عجلًا سمينًا مشويًّا، فالفاء تُشْعِر بأنَّه ﷺ بادَر بالذَّهاب، ولم يُمهِل، وقد ذكروا أنَّ مِن أدبِ المُضيف أن يبادر بالقِرى من غير أن يَشْعُر به الضَّيْف؛ حذرًا من أن يَمنَعَهُ الضَّيف، أو يَصيرَ منتظرًا[1].

سرُّ إيثارِ الفعل (راغ) دون غيره:

من أدبِ الضّيافة التَّسلُّل إلى إحضار القِرى في خِفية وخِفَّة

فاعِلُ الفعلِ (راغ) هوَ إبراهيم ﷺ، والمعنى: أنَّهُ "ذهب في خِفْية وخِفَّة ومواضع سُترة عن أعيُنِهم، كما هو من آداب الضّيافة؛ خوفًا من أن يمنعوه، أو يكدِّر عليهم الانتظار"[2]، و"عن الفرّاء أنَّه لا ينطق بالفعلِ "راغ" حتّى يكون صاحبُه مُخْفيًا لِذهابه أو مجيئِه"[3]،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 13.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 463.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 526.

فهو ميلٌ إلى أمرٍ على وجهِ السِّرِّ، و"غَيْبَةُ المُضيف لحظةً عن الضَّيف مستحسَنٌ؛ ليستريح، ويأتي بدَفْعِ ما يحتاج إليه ممّا يَمنَعُه الحياءُ منه"[1].

وفي اصطفاء الفعل (راغ) هنا اتِّساقٌ عجيب مع (فاء) التَّعقيب؛ إذ لا يُتصوَّر خروج المُضيف فور دخولِ الضَّيف خروجًا مكشوفًا صريحًا، والقوم هنا قد دَخلوا قريبًا، وهو عليه السلام يَجْهلهم، فالمجالُ للتَّعارف والتَّلاطُف وبسطِ القول، وما إلى ذلك ممّا يلائم المقام.

فجاء فعل الرَّوَغان مُنْبِئًا عن لُطْف تَسَلله من بينهم دون أن يَفطِنوا إلى خروجه، ولا يَتَحَرَّجوا من تكلُّفه لهم، وبذلك اتَّسقت دلالة الفعل (راغ) مع دلالة التَّعقيب للفاء في تصويرِ المَشهد الحريص على عدم إشعارهم بالكُلْفة، وعدم الإبطاء بالكرم في الوقت ذاته.

معنى ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾:

﴿إِلَىٰٓ﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾؛ لانتهاء الغاية المَكانيَّة، وهي تُبَيِّن أنَّ غايته كانت التماسَ ما لدى أهلِه مِن ضيافةٍ تليقُ بالضَّيف المكرمين، وهكذا المُضيف يلجَأُ إلى أهلِه؛ ليَتَدبَّر معهم الأمر، ويُحقِّق التَّعاون على توفير ما يُمكِنُ توفيرُه من قِرى الأضياف، وهكذا فَعَل إبراهيمُ عليه السلام.

ينبغي أن يتوفَّر المُضيف على إكرام ضَيْفِه عندَ نُزولِهِ بِهِ

دلالةُ التَّعبير بالأهل في قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾:

الأهل في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ يُرادُ به: زوجُه سارة؛ إذ كانت هاجَرُ وإسماعيلُ عليه السلام قد أُسْكِنا مكَّة المكرَّمة، وأُطلق على الزَّوجة "أهل"؛ لأنَّها تقوم بالنِّسبة للرَّجل مقام صنوف الأهل جميعًا، في إعداد متطَلَّباته والقيام على شُؤونه، وكأنَّها صارت جمعًا من الأهل، وتمثِّلُهم جميعًا، وقد يُراد بـ ﴿أَهۡلِهِۦ﴾: خدَمُه، كالرِّعاء"[2].

المـرأةُ لزوجِها كالأهلِ جميعًا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.

(2) القِنّوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 200. "والرعاء جمع: راع"، يُنظر: ابن دُريد، جمهرة اللغة: (رعي).

دلالةُ الإضافة في ﴿أَهۡلِهِۦ﴾:

في إضافة (أهل) إلى ضميرِ إبراهيم ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ تنويهٌ بدور أهلِ الرَّجل في تدبير أمر أضْيافِه، وإيحاءٌ بأنَّ الرَّجل دون أهله لا يوفَّق غالبًا إلى الكمال في إكرامِ أضيافه والقيامِ بشؤونِهم.

القرآنُ الكريم يُنَوِّه بدور أهلِ الرَّجل في تدبير أمر أضْيافِه

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ﴾:

(الفاء) في قول الله تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٖ﴾ دالَّةٌ على العطفِ مع التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، وهي عاطفةٌ ما بعدها على ما قبلها مع طيِّ ما بين رَوْغِه ﷺ إلى أهله وما بين مجيئه بعجل سمين، مِن تفاصيلِ الذَّبح، والسَّلخ، والشَّوي، ونحو ذلك؛ قَفْزًا إلى الحَدَث الأهمِّ لديه ﷺ، وهوَ مباشرة الإكرام: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٖ﴾.

من قيم الضّيافة سرعة تهيئتها، وإن كانت ذبحًا وسَلْخًا وشَيًّا

وهذه (الفاء) توحي بسرعة الخليل ﷺ في معالجة الذَّبح والسَّلخ والشَّوي سرعة يعرفها أهل الكرم الأصلاء من الحرص على عدم إشعار الضَّيف بالعبء والكُلْفة، وكلُّ ذلك ممّا تطويه (الفاء) في جملة: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٖ﴾.

دلالةُ التَّعبير بالفعل (جاء) دون (أتى):

عُبِّر بالفعل (جاء) في قول الله تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٖ﴾؛ إذ تحقَّق مجيئُهُ بالضّيافة، ونُفِّذت فعلًا لا قولًا، مع عِظَم ما بُذِل من جُهد، وما قُدِّم من تضحية، وكلتا الدَّلالتين من التَّحقُّق والبذل إنَّما يُلائِمُهما التَّعبير بفعل المجيء، لا فعل الإتيان.

المجيءُ يكون لما تحقَّق بالفعل

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِعِجۡلٍ﴾:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٖ﴾ باء التَّعدية، فقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ﴾، أي: جَلَبَه، ومضى به، وتحتمل المعيَّة والمُصاحبَة، أي: جاءَ، وفي معيَّتِه عجلٌ سمينٌ؛ وذلك يَعْكِسُ سُرعة توالي أحداثِ الذَّبح وما تلاها، سُرعةً لا تكاد تُتصوَّر؛ إذ الذَّبح والسَّلخ والشَّيُّ وما

الكريم لا يَدْخُل على ضيفِهِ فارغًا

يتبعُ ذلك، يَستغرق جهدًا ووقتًا ليس بالقصير، ومع ذلك حين جاء ﷺ؛ جاء بعجلٍ سمينٍ.

دلالةُ التَّعبير بـ (عجل)، ولطيفة تنكيرِه:

كرمُ المؤمنِ طبعٌ أصيلٌ فيه، تتجلّى أصالتُه في سُرْعَة البذل وعِظَمه

في اختيار الضّيافة عجلًا دلالةٌ على الكرم الوافر؛ إذ لم تكن عنزةً ولا شاةً مثلًا، فـ "مِن إكرام الضيف أن يُقَدَّم له أكثرُ مِمّا يأكل"[1]؛ وفي ذلك كنايةٌ عن حبِّه ﷺ الكرمَ، وعن أصالتِه فيه، وفِعْله إيّاه برغبةٍ صادقة، وإخلاصِ مُحِبٍّ، وفي تنكير (عجل) دليلٌ على استِوائِه واكتِماله وفخامتِه.

دلالة وصف (عجل) بـ ﴿سَمِينٍ﴾:

مَن طُبع على الكرم؛ عظَّمَ ضيافتَهُ

مع أنَّ اختيار إبراهيم ﷺ عجلًا لضيافة ضيفِه المكرمين، قد انتقى العجل السَّمين، أي: "ممتلئ لحمًا وشحمًا"[2]، فصوغ ﴿سَمِينٍ﴾ صفةً مشبَّهةً يفيد المبالغة، وهذا صنيعُ مَن طُبِعَ على الكرم، وجُبل على حبِّ الضّيافة، لا مَن يُؤَدّيها واجبًا محضًا، وإلّا لاكتَفَى ﷺ بما دون العجل، وبِغَيْرِ السَّمين، لكنَّه خليل الله تعالى، فيُنْفِقُ، ولا يخشى من ذي العرش إقلالًا.

و"وُصِف العجلُ هنا بـ ﴿سَمِينٍ﴾، ووُصِفَ في سورة هود بـ ﴿حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: 69]، أي: مشويّ، فهو عجلٌ سمين شَواهُ، وقرَّبه إليهم، وكان الشِّواءُ أسرعَ طَبْخِ أهل البادية، وقام امرؤ القيس يذكر الصَّيد:

فظلَّ طُهاةُ اللَّحْم من بَين مُنْضِجٍ *** صَفيفَ شِواءٍ أو قديرٍ معجَّلِ[3]

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾:

الكريم يُسعِده إكرامُه ضيفَه

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ فاء التَّرتيب والتَّعقيب، المؤذنة بسعادته ﷺ بإكرامه ضيفَه الكرام، واصطفاء فعل التَّقريب

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 13.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 20.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 359، والبيت من معلّقته، يُنظر: ديوان امرئ القيس، ص: 22، وفيه: "وظلّ" بالواوِ بدل الفاءِ.

يَدعم تلك الدَّلالة، ويقرِّر بلوغَهُ ﷺ في الكرم والجود مبلغًا لا مطمح وراءَهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل (قرَّب) ماضيًا مضعَّفًا:

من قيَم الضّيافة في الإسلام تقريبُها إلى الضَّيف حيث هو، لا انتدابهُ هو إليها

معنى ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾: أدناه منهم، ولم يَنتَدِبْهُم هُم إليه، ولم يَنْقُلْهم من مجلسِهم إلى موضعٍ آخرَ، بل جعل الطَّعام بين أيديهم، وهذا مِن تمامِ الإكرام للضَّيف، بخلاف ما يُطْعَمُه العافي والسّائل، فإنَّه يُدعَى إلى مكان الطَّعام.

ففي التَّعبير بفعل التَّقريب (قرَّب) في قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ دلالةٌ على صِدْقِ كَرَمِه ﷺ، وأنَّه فعل ذلك الكرم والتَّقريب بدافعٍ ذاتيٍّ قويٍّ، ونيَّة مُحِبَّة لدعم الغُرباء وأبناء السَّبيل.

وفي صَوغ الفعل (قرَّب) ماضيًا إشارةٌ إلى صِدْقِ الفعل أيضًا؛ إذ بادَرَ بالتَّقريب، وحقَّقه، وصار التَّقريب في حيِّز المَقْطوعِ به النّافذ.

وفي تضعيف عين الفعل (قرَّب) مبالغةٌ في التَّقريب، وكأنَّه وضَعَهُ مُلْتَصِقًا بهم، فلا يتكلَّفون مَدَّ الأيادي طويلًا، وتلك أماراتُ الكرم منه ﷺ.

معنى (إلى) في قوله: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

إطعامُ الضَّيف وتلذيذُه بالطَّعام غايةُ الكُرماءِ

(إلى) في قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾: لانتهاء الغاية المكانيَّة، فقد كانت غايتُه ﷺ توصيلَ الكرَم ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾، وإطعامهم إيّاه، وتَلْذيذهم به، وسدَّ فاقَتهم، وهم عنده أبناءُ سبيل يحتاجون ذلك، ولم يكُن يَدري أنَّهم ملائكة كرامٌ لا يأكلون، ولا يشربون.

علَّةُ فصل قوله: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ عمّا قبله:

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ عن قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ للاستئناف البيانيِّ، فيكون بين الجملتين شبهُ كمال الاتِّصال، فكان كأنَّه قيل: فماذا قال لهم حين لم يأكلوا؟ فجاء

الجواب: ﴿قَالَ﴾، أي: مُتأدِّبًا غاية التَّأدُّب ملوِّحًا بالاستغرابِ: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾، أي: منه؟[1]، فـ "في الكلام متروكٌ اكتُفي بدلالة الظّاهر عليه منه، وهو: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، فأمسكوا عن أكله، فقال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾؟"[2].

من أدب الاستضافة حضُّ الضَّيف على الطَّعام دون العزْم عليه فيهِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالقول ماضيًا:

جملة: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ بدلُ اشتمالٍ من قوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[3]، وفَصْلُها عنه يُشعر بتَزامُنِهما وعدم الفَصْلِ بينهما؛ كرمًا منه عليه السلام.

من آداب الاستضافة إبداءُ الاهتمام بالضَّيف

وفي التَّعبير بفعل القول في جملة: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ إفصاحٌ منه عليه السلام عن شدَّة رغبته في أن يأكلوا، وحثِّه إيّاهم على الأكل من ذلك العجل السَّمين الحنيذ، وهذا مِن منهج الكرماء حين يقرِّبون الطَّعام إلى ضُيوفهم، يتعهَّدونهم بالتَّحيَّة والحفاوة، ويُبْدون الحِرْصَ على تناوُلِ الضَّيف مزيدًا من الطَّعام، وكلَّما استزاد من أكلِ الكريم؛ أشعرَهُ بالسَّعادة.

فالمُضيف هنا - وهو إبراهيمُ عليه السلام - مسرورٌ بأكلهم، غيرُ مسرور بتركهم الطَّعامَ، كما هي عادة بعضُ البخلاء المتكلِّفين، الَّذين يُحضرون طعامًا كثيرًا، ويكون نظرُه ونظر أهل بيته في الطَّعام متى يُمسِك الضَّيْفُ يدَهُ عنهُ[4].

معنى ﴿أَلَا﴾ في قوله: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾:

﴿أَلَا﴾ في قوله عليه السلام للضَّيف المكرمين: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ كلمةٌ واحدة استفهاميَّة، يُرادُ بها العرضُ والتَّحضيض[5]، أي: رغبةً في

مجرَّد وجود مائدة طعامٍ لا يُعدُّ إذنًا بالأكل، بل لا بُدَّ مِن العَرْض والحَضِّ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 26/ 360.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 527.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 359.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(5) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 201.

حصول الفعل الَّذي تدخُل عليه، وهي هنا متعيِّنة للعَرْض؛ لوقوع فِعل (القول) بدلًا من فعل ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، والعَرْضُ على الضَّيف عقِب وضْع الطَّعام بين يديه زيادةٌ في الإكرام بإظهار الحِرص على ما ينفع الضَّيف، وإنْ كان وضْعُ الطَّعام بين يديه كافيًا في تمكينه منه[1].

فقد "حضَّهم على الأكل شأنَ المُضيف الكريم، فقال لهم على سبيل التَّلطُّف وحُسْن العَرْض: ألا تأكلون من طَعامي؟"[2]، و"رَوَى مكحولٌ أنَّهم قالوا: لا نأكله إلّا بثمَنٍ، قال: كلوا، فإنَّ له ثمنًا، قالوا: وما ثمنُه؟ قال: إذا وضَعْتُم أيديكُم؛ أن تقولوا: بسم الله، وإذا فرَغْتُم؛ أن تقولوا: الحمد لله، قالوا: بهذا اختارك الله يا إبراهيمُ"[3].

دلالةُ التَّعبير بالأكل في قوله: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾:

الإفصاحُ عن غايةِ ما صنَعَ لهم

في التَّعبير بِمُفْرَدة الأكل الصَّريح في قوله: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ إفصاحٌ عن الغاية الَّتي لأجلها ذَبَح ﷺ، وسلَخ، وشَوَى، وقرَّب الشِّواء، ودعاه إلى التَّصريح بالجميع أنَّهم "امتنعوا عنه، فخاف أن يكونوا سُرّاقًا؛ إذ لا يَمتنع عن التَّناول إلّا السُّرّاق"[4].

دلالةُ صوغ الفعل ﴿تَأۡكُلُونَ﴾ مضارعًا:

من كرم المُضيف عنايته بِأكل الضَّيف وحضِّه عليه حتَّى يشبع

صوغ الفعل ﴿تَأۡكُلُونَ﴾ مضارعًا يدلُّ على رغبته ﷺ في أن يأكل الضَّيف المكرمون، وأن يُجَدِّدوا الأكل حتّى يَشبعوا، وألّا يَخْتَصِروا الأكل في لُقَيْمات قليلةٍ، بل يَظَلّون يأكلون حتّى يَشْعُر هو بِشِبَعهم، وهكذا هُم الكرماء، يَشبعون؛ إذا شَبِعَ ضيفُهم، ويَسعدون؛ إذا سعد، ويَغتَمّون؛ إن رابَه شيء، أو أحزنه.

يقول ابن كثير: "وهذه الآيات انتظمت آدابَ الضّيافة، فإنَّه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتَنَّ عليهم أوَّلًا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 359.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 21.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 370.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 384.

فقال: نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسُرْعَةٍ وخفاء، وأتى بأفضل ما وجَدَ من ماله، وهو عجلٌ سمينٌ مشويٌّ، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، لَم يَضَعْهُ، وقال: اقتربوا، بل وضعَه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يَشقُّ على سامعه بِصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتَّلطُّف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيتَ أن تتفضَّل، وتُحْسِنَ، وتتصدَّق، فافعل"[1]، فـ "العَرْضُ للأكل لا الأمر؛ إذ قال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾، ولم يقل: كُلوا"[2].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَوۡجَسَ﴾:

(الفاء) في قوله: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ فاءُ العَطْف، وهي عاطفةٌ على محذوفٍ من الكلام، والتَّقدير: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١﴾، فلم يأكلوا، وظلّوا ممتنعين عن تناول الطَّعام، فأوجس منهم خيفة، وعلى ذلك فهذه الفاءُ عنصرُ إيجازٍ لغويٍّ فاعلٍ في الكلام؛ إذ يُختصَر بها كلامٌ كثير حيثُ يُقصَد توفيرُ عناية المتلقّي على تدبُّر المذكور؛ لأنَّه المطلوب الأهمُّ، ويبقى غيرهُ ملحوظًا لا يُعْيي إدراكُه.

تَـوْفـيرُ العِـنـايـة عـلـى الـعُـنْـصُـر المذكور الأهَمِّ

دلالةُ التَّعبير بالفعل (أوجس) ماضيًا:

التَّعبير بالفعل (أوجس) يُفيدُ أنَّ الخليل ﷺ "أحسَّ في نفسه خوفًا منهم؛ لمّا لم يأكلوا ممّا قرَّبه إليهم"[3]؛ وذلك أنَّ مَن أكل؛ "حَفِظ حَقَّ المُؤاكلة"[4]، فـ "أَكْلُ الضَّيف أَمَنَةٌ، ودليلٌ على انبساط نفسه، والطَّعامُ حُرْمة وذِمام، والامتناع منه وحْشَة، فخشي إبراهيم ﷺ أنَّ امتناعهم من أكل طعامه إنَّما هو لِشَرٍّ يُريدونه"[5]، فالتَّعبير بالفعل (أوجس) هنا يترجم بدقَّةٍ ما حصل له ﷺ في هذه اللَّحظات.

الـطَّـعـامُ بين الـنّـاس حُـرْمة وذِمـــــام، والامـتـنـاعُ منه وحْشَة وخِصام

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 34.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 105.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.

وفي صوغ الفِعْلِ ماضيًا دلالة على سكون الخوف على نفسِه ﷺ وحصوله فيه، وانعقاد قلبه عليه فعلًا مقطوعًا به.

معنى (مِن) في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾:

بـيـانُ سبب الخوفِ

(مِن) في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ سببيَّة؛ لأنَّ الخوف إنَّما حصل له ﷺ بسبب عدم أكلهم، أي: بسببهم، والدَّليل أنَّهم تداركوه بالتَّطمين، ومَحْوِ سبب الخوف، فقالوا: لا تخف، نحن ملائكة الله تعالى، جئنا نُبَشِّرك بغلام عليم.

لطيفةُ تقديم ﴿مِنْهُمْ﴾ على المفعول ﴿خِيفَةً﴾:

انحصارُ سبب الخوف في امتِناعهم عن الأكلِ

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنْهُمْ﴾ على المفعول ﴿خِيفَةً﴾، في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، قصرُ سببِ إيجاسه خيفةً على كونه منهم، قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ إذ لا مقتضي لإيجاسه خيفةً مِن أيِّ شيءٍ آخرَ حينئذٍ؛ لأنَّه كان حينئذٍ منبسطَ النَّفس، سعيدَ القلب نشيطًا في إكرامه ضيفَه حتّى رابه امتناعُهم عن الأكل.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿خِيفَةً﴾ دون (خوفًا)، ونكتة تنكيره:

التَّعبيرُ القرآنيُّ يدلُّ على أنَّ الخيفة أشدُّ من الخوف

عبَّر النَّظم الكريم في هذا السّياق بـ ﴿خِيفَةً﴾ لا (خوفًا)؛ لأنَّ "الخيفة: الخوفُ الشَّديد، الَّذي يَظْهَرُ في الهيئة"[1]، وهو ﷺ قد "خاف، وأخذته الرِّعدة"[2]، بل و"بَيَّنَ لهم أنَّه خائفٌ منهم، فـ ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 52]"[3]، بل خاف ﴿خِيفَةً﴾ "عظيمة؛ لِما رأى مِن أحوالهم، وشاهَد من جلالهم"[4].

أمّا التَّعبير بالخوف؛ فلا يبلُغ ذلك المبلغ من الرِّعدة؛ ولذلك لَمّا نفى الله تعالى عن أهل الجنَّة الخوفَ؛ نفى الأدنى منه؛ تنبيهًا على نفي الأعلى بطَريق الأولى، وذلك في مثل قولِه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3730.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 130.
(3) الشنقيطي، العذب النمير: 3/ 333.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 9/ 330.

هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: 38]، وقوله تعالى: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: 69].

عِلَّةُ فصل جملة: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ عمّا قبلها:

فُصِلت جملة: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ عمّا قبلها؛ لكونها استئنافًا بيانيًّا، فيكون بين الجملتين شبهُ كمال الاتِّصالِ؛ إذ مِن شأن ما قبلها أن يُثير سؤالًا يقول: وماذا كان ردُّ فعلهم، وقد رأوه خائفًا خوفًا شديدًا بلغ به حدَّ الرِّعدة؟ فجاءت جملة: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ مُجيبةً عن هذا السُّؤال المتوقَّعِ من المخاطَبين.

أثرُ الاستِئنافِ البَيانيِّ في مُتابعة شَوقِ المتُلَقّي

دلالةُ فعلِ القول الماضي:

في التَّعبير بفعل القول في جملة: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ تصريحٌ بأنَّهم تداركوا الأمر إفصاحًا، ونَطَقوا بهذا القول ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾، فمِن شأن الإفصاحِ بالقول والجهر به حينئذٍ أن يُسَكِّن النَّفس، وينتزع منها الخوفُ، وذلك ما كان من الضَّيف المُكْرَمين فعلًا.

من المقامات ما يقتضي المعالجة بالقول الصَّريح الفوريِّ

وصوغُ فعلِ القَوْلِ ماضيًا يوحي بسرعة معالجتهم الموقفَ، وقولهم: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾ قولًا فوريًّا محقَّقًا، كأنَّه مَضى قبل أن يَقولوهُ.

معنى ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾:

﴿لَا﴾ في قول الضَّيف المكرمين ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾ ناهيَةٌ، غرضُها تسكينُ نَفْسِه، وتهدِئَةُ إيجاسِه ﷺ، وليس غرضُها الإلزامَ والقهرَ على سبيل النَّهي الحقيقيِّ؛ لأنَّ المقام لعَكْسِه أصلًا، وقولهم: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾ يَدُلُّ على أنَّهم لَمَحوا آثارَ الإيجاس على وجهه، فبادروا بتطمينه بتلك الصّيغة القويَّة: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾.

المُبادرَةُ إلى تَطْمين الخائفِ

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الخوف مضارعًا:

في النَّهي عن الخوف الصَّريح استلالٌ له من نَفْسِه ﷺ،

التَّطمينُ من مقدِّمات التَّبشير

وتطمين بأنَّه لا داعيَ للخوفِ، ولا مجال له؛ لأنَّنا رسلُ ربِّك، وهي مِن لوازم التَّبشير.

وكما تسلَّطت أداةُ النَّهي ﴿لَا﴾ على مادَّة الخوف؛ كذلك تسلَّطت على صيغة المضارعة في الفعل ﴿تَخَفْ﴾، فأحالت الدَّلالتين إلى ضدَّيْهما، فالخوفُ استَحالَ طُمأنينةً، وتَجَدُّدُه صار دوامًا وثباتًا لهذه الطُّمأنينة في نفسه، وكذلك تفعل (لا) النّافية مع المضارع.

وفي قولهم له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ "إظهارُ العُذْرِ عند الإمساك عن الطَّعام، وتحسين العبارة في العُذر"[1].

معنى الواو في قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ﴾:

التَّناسُب بين المعاني القرآنيَّة سِمَةٌ جليَّة

(الواو) في قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ عاطفة، تجمَعُ بين القولِ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ والبِشارة بِغُلام عليم، فجمَعَت فِعْلَين صادرَيْنِ من الملائكة الكرام إلى إبراهيم ﷺ جَمَعًا سلبَ الخوفَ بالبِشارة، وهما مطلبانِ مُرْتَبِطان ارتباطًا وثيقًا؛ لأنَّ تهدئة النَّفس وإزالة الخوف منها شرطٌ لإلقاء الخبر الثَّقيل، والتَّناسُب بين الفعلين واضح والجامع متين، فكلاهما لإبراهيم ﷺ خيرٌ، خيرٌ عاجلٌ تَحقَّق في الحالِ، وخيرٌ عاجل أيضًا يتحقَّق بعد مُدَّة الحَملِ المعتادِ، "ويُرْوى أنَّه إنَّما عرف كونَهم ملائكةً استدلالًا مِن بشارتهم إيّاه بِغُلَيِّب"[2].

دلالةُ فعلِ البِشارة ماضيًا مضعَّفًا:

من أدب الاعتذارِ عن تناولِ طَعام المُضيفِ نسبَةُ المانعِ إلى المعتذِر

في التَّعبير بفعل التَّبشير في قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ دلالةٌ على أثَر الخبر على انبساط أسارير الوجه، ونُضرة البَشَرَة، وانفراجة السَّعادة، وتضعيف عين الفعل في جملة (بَشَّروه)، يوحي بقوَّة أثر فعل التَّبشير في نفسه ﷺ، ويلائم عظمة البِشارة، فإنَّها

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.

بغلام "ذَكَرٍ؛ لأنَّه أسرُّ للنَّفس وأبهج"[1]، وفيه فضلًا عن ذلك أهمُّ الصِّفات النّافعة، وهي كونُهُ عليمًا.

ويُلْحَظ أنَّ الملائكة الكرام "فهَّموه ﷺ أنَّهم ليسوا ممَّن يأكلون، ولم يقولوا: لا يصلح لنا الطَّعام والشَّراب"[2]، وأنَّ المانع عندهم وبسبَبٍ منهم، لا بسبب نوع الأكلِ أو جَوْدَتِه.

فائدةُ تقديم البِشارة على الإخبار عن إهلاكِهم قومَ لوط:

دَرْءُ المفاسِدِ مقدَّم على جَلْبِ المَصالِحِ

قَدَّم الضَّيفُ المكرمون البشارةَ بالولد على الإخبار بإهلاك قوم لوطٍ؛ "ليُعْلم أنَّ الله تعالى يُهلكهم إلى خَلَفٍ، ويأتي بِبَدَلهم خيرًا منهم"[3]، وهكذا يراعي النَّظم الكريم ترتيب المعاني بحسب ترتيب الأغراض من الكلام، و"في وقوع البشارة بعد التَّأنيس إشارةٌ إلى أنَّ دَرْء المفسدة أهمُّ مِن جلب المصلحة"[4]، و"الله تعالى لمّا قدَّر أن يُهلك قومًا كثيرًا وجمًّا غفيرًا، وكان ذلك ممّا يُحزن إبراهيمَ ﷺ شفقةً منه على عباده، قال لهم: بشِّروه بِغُلام يُخرَج مِن صُلبه أضعافَ ما يُهلَك، ويكون من صلبه خروج الأنبياء ﷺ"[5].

معنى الباء في قوله: ﴿بِغُلَٰمٍ﴾:

كراماتُ الله تعالى تُفاجئ عبادَهُ المؤمنين فوق ما يتخيَّلون وقتَما لا يحتسبون

(الباء) في قيد التَّبشير ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ باء السَّببيَّة، أي: بشَّروه بسبب هِبَةِ الله تعالى إيّاه غلامًا متميِّزًا بالعلم وفِقه الدّين والشَّريعة، وأكرِم بها من بِشارة لشَيْخٍ كبيرٍ! ابتُلي في ابنهِ الآخر إسماعيل بالذَّبح، فأجاب، فكوفِئ بحياته، وإن كان هنالك بعيدًا في مكَّة، فها هو يُبَشَّرُ بِغلام آخرَ هو إسحاقُ ﷺ جميعًا.

وفي تلك البِشارة تنبيهٌ إلى أنَّ كراماتِ الله تعالى لعباده المؤمنين تأتيهم فوق ما يتخيَّلون، ووقتما لا يَحْتَسِبون.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 13.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 14.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 174.

دلالةُ التَّعبير بـ (غلام) دون (ولد)، ونكتةُ تنكيره:

البِشارَةُ بالولَدِ الـذَّكـر رفـيـعِ القَدْرِ

المقصودُ بالبِشارة هنا إسحاقُ؛ لأنَّ البشارةَ كانت بالولدِ مِن سارةَ، وإسماعيلُ لهاجَرَ لا لِسارةَ[1]، وقد "بيَّن في آية أخرى، فيمَن كانت البِشارة؛ حيث قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: 71]؛ فدلَّ أنَّ البِشارة إنَّما كانت بإسحاق"[2].

والغلام: يُطلق على الصَّبيِّ مِن "حين يولد إلى أن يشبَّ، أو حين يقارِب سِنَّ البلوغ، ويُطلق على الرَّجُل مجازًا"[3]، وتسميةً لهُ "باسم ما كان عليه، كما يقال للصَّغير: شيخٌ مجازًا، باسم ما يؤولُ إليه"[4].

وفي التَّعبير بالغلامِ دون الولدِ دلالةٌ على أنَّه ولدٌ ذكرٌ، بخلافِ لفظ الولدِ؛ فيُطلق على الذَّكر والأُنثى، وفي تنكيره إيماءٌ إلى رفعةِ شأنه وجلالةِ قدره.

نكتةُ وصف (غلام) بـ ﴿عَلِيمٍ﴾ على زنة (فعيل):

العـلـمُ رأسُ الأوصـــــاف ورئيسُ النُّعوت

في وصف (غلام) بـ ﴿عَلِيمٍ﴾ مبالغةٌ في اتِّصافه بالعِلم، وأنَّ العِلمَ يكونُ "صفةً بارزة من صفات إسحاق، كما كان الحِلم الصِّفةَ البارزة في إسماعيل، كما يقول سبحانه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: 101][5]، فجمَع للخليلِ بين بشارتين في واحدةٍ هُما (غلام) و﴿عَلِيمٍ﴾، وذلك من شأنه أن يُنعِمَهُ ﷺ بالسَّعادة والحبور بدلًا ممّا كان مِن خيفةٍ ورِعدة، والأصل فيمَن يولَدُ ألّا يكونَ ذا علم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: 78]، فيكون وصفُ العليمِ باعتبار ما يكونُ.

ويجوزُ أن "يولد عليمًا، يؤتيه الله تعالى علمًا في بطن أمِّه،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 527.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 385.
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (غلم).
(4) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (غلم).
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 517.

وإذا وُلِدَ في صِغَرِه، ولله تعالى أن يُؤْتِيَ العلم من يشاء في حالِ الصِّغر والكبر، ألا ترى أنَّه قال ﷻ في عيسى عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: 12]"[1].

وفيه بِشارة أنَّ الغلام يبلُغ، ويَعلم[2]، وقد "تركوا سائر الأوصاف من الحُسن والجمال والقوَّة والسَّلامة، واختاروا العلمَ إشارةً إلى أنَّ العلمَ رأسُ الأوصاف ورئيسُ النُّعوت"[3]، و"لأنَّها الصِّفة الَّتي يَختصُّ بها الإنسان الكامل لا الصّورة الجميلة والقوَّة ونحوهما"[4]، و"في صيغةِ المُبالغَة مع حَذْفِ المعمولِ ما لا يَخْفى ممّا يوجِب السُّرور"[5].

توجيهُ المُتشابِه اللَّفظيّ:

بسطُ الحديث مَظِنَّةُ التَّفصيلِ وتعديدِ النِّكات

لم يُبيَّن هاهنا المبشَّر به، وفي قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: 71] ذُكِر باسمه، وهو إسحاق، ولم يقل هاهنا: إنَّ القومَ قَوْمُ مَن؟ فقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الذاريات: 32]، وفي سورة هودٍ قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: 70]، وفي الجملة مَن يتأمَّل السّورتين يَعلم أنَّ الحكاية محكيَّة في سورة هودٍ على وجهِ البَسْطِ، فذُكِرَ فيها النُّكتة الزّائدة، ولم يُذْكَر هاهنا[6].

تبشيرُ أحد الزَّوجين بشارةٌ لِكِلَيْهما

وجاء في سورة هودٍ عليه السلام أنَّ البشارة كانت لامرأته؛ إذ قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: 71]، وذكر في هذه السّورة أنَّ البشارة كانت لإبراهيم عليه السلام، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾؛ لأنَّه إذا بُشِّر أحدُهما بالولد مِن الآخر؛ كانت البشارةُ لهما جميعًا[7].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 385.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 13.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 14.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 176.
(7) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 385.

نكتةُ تركِ الملائكة إبراهيمَ ﷺ حتّى أتى بالعجل مشويًّا:

كـرمُ الضّيافة، والمبالغةُ فيه من شيَمِ الصّالحين

من المعلوم أنَّ الوقت الَّذي يتَّسع لذبح عجلٍ سمين، وسَلْخِه، وشيِّه، قد يمتدُّ إلى نَحوِ رُبعِ النَّهار، والنَّظم الكريم لم يَذْكُر أنَّ الضَّيف المكرمين استعجلوا الخليل خلال هذه المدَّةِ، وإنَّما تركوه يجهِّز القِرى، وفي ذلك قصدُ تعليم النّاس كرمَ الأضياف عَمَليًّا، وبيان جواز المبالغة فيه، وضرورة توفُّر الرَّغبة لدى المضيف الكريم في أن يَتناول ضيوفُه أكلَه.

ثمَّ إنَّ إبراهيم ﷺ كان قد تسلَّل بلُطْفٍ دون استئذانٍ، بل دون إشعارهم، وغاب عنهم طَويلًا؛ ممّا يجعل انتظارَهم إيّاه كلَّ تلك المُدَّةِ لافتًا، ويدعَم قَصْدَ تعليم النّاس وجوبَ كرَمِ الضّيافة، ووجوب صبْرِ الضّيوف على المضيف.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ﴾:

تَلَقّي ما ظاهرُه إنكارُ الحقِّ بالبيان اللَّطيف خُلُقٌ كريم

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ فاء التَّفريع، فإنَّ سارةَ امرأةَ إبراهيمَ "كانت تقفُ قريبًا من إبراهيمَ وضَيْفِه؛ بحيث تسمَعُهم ولا يرونها، فلمّا سَمِعَت البشارة؛ دُهِشَت، ونَسيَت ما ينبغي منها"[1]، وحصل منها ما حصل من صكِّ الوجهِ وضربه، وإبداء العجب والخجلِ، كما قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: 72].

ولم تُخطِّئْها الملائكة مجابَهةً، بل أزالت عجَبَها بالحكمة، وقوَّت عزيمتَها على مواجهة النّاس بالحَملِ والولادة بأنَّه أمرُ الحكيم العليم، وأنَّها رحمتُه وبركاته على أهل بيتِ النُّبوَّة؛ وذلك يُعَلِّمُ الخُلُق الكريم، ويربّي السُّلوك القويم على تلقّي أثر الخبر الثَّقيل بهدوء وبيان وتقويمٍ.

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1098.

دلالةُ التَّعبيرِ بفِعْلِ الإقبال ماضيًا:

التَّعبيرُ بفِعْلِ الإقبالِ في قوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ يحتَمِلُ أن تكون (أقبلت) بجَسَدِها نحوَهم، و"كانت تَقِفُ قريبًا من إبراهيمَ وضَيْفه بحيث تسمَعُهُم، ولا يرونَها"[1]، "قال الحسَن: أقبلت إلى بَيْتِها، وكانت في زاوية تَنْظُر إليهم؛ لأنَّها وجدت حرارةَ الدَّم، فلطَمَت وجهها مِن الحياء"[2]، فهو إقبالٌ حسّيٌّ حقيقيٌّ.

عِظَمُ خَبَرِ البِشارة يستحقُّ العُجبَ والاندهاشَ

ويحتَمِل أن تكونَ أقْبَلَت باهْتِمامها، وهي باقيَةٌ في مَكانِها، قال ابنُ جريرٍ: "وليس ذلك إقبالَ نُقْلَةٍ مِن موضعٍ إلى موضعٍ، ولا تَحوُّلٍ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، وإنَّما هو كقولِ القائلِ: أقبَل يَشْتُمُني، بمعنى: أخَذ في شتمي"[3]، فهو إقبال معنويٌّ مجازيٌّ، وفي الحالَيْنِ يدلُّ فعلُ الإقبال على تمامِ العِنايَةِ بالخبَر المبشَّر به، وعلى شدَّة عجبها منه.

ويحتَمل أنَّها "أقبلت على أهلِها، وذلك لأنَّها كانت في خِدْمَتِهم، فلمّا تكلَّموا مع زوجها بِولادتها؛ استحيَت، وأعرضت عنهم، فذكر اللّه تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل، ولم يَقُل بلفظ الإدبار عنِ الملائكة"[4].

وفي صَوغ فعل الإقبال (أقبلت) ماضيًا دلالَةٌ على شِدَّة تأثير البِشارة عليها، وسرعة إقبالها؛ إذ "لمّا سمِعت البِشارة؛ دهشت، ونسيت ما ينبغي منها"[5]، وهكذا عطاءُ الكريم ﷻ يُسعِد، ويُدهِشُ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ دون (زوجته):

في التَّعبير بـ ﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ دون (زوجته) إشارة إلى ما كانت عليه من العُقم وعدم الاستعداد للحَملِ والإنجاب حتّى تلك اللَّحظة، فقد

الزَّوجةُ في القرآنِ مَن تتكامَلُ لحياتها الزَّوجيَّة أسبابُ السَّعادة

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1098.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 528.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1098.

جرى تسمية الزَّوجة بالمرأة حين تَفْتَقِر حياتُها الزَّوجيَّة إلى بعض أسباب السَّعادة، كأنْ تكون عاقرًا لا تلد، أو تكون علاقتها بزوجها قائمةً على غير الحُبِّ والودِّ، أو يختلف دينـاهُما.

ويُعبَّر بالزَّوجة حين تتكامل بين الزَّوجين أسباب السَّعادة، مثل الحُبِّ، والودِّ، والإنجاب، ونحو ذلك[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾:

اختصاصُ سارة بشأنِ الحَملِ والإنجابِ

الإضافة في ﴿ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ تفيد اختصاصَ سارة بإبراهيمَ ﷺ، وأنَّها هي المعنيَّة الأولى بأمر الحَمل والإنجاب دون سواها، فهي المتوجِّسة من كلام النّاس في حملها في تلك السِّنِّ المتأخِّرة.

معنى ﴿فِي﴾ في القيد ﴿فِي صَرَّةٖ﴾:

البشائرُ العظيمة تلفُّ من يتلقّاها من أصحابها في دهشة كبيرة

حرف الظَّرفية ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ مصوِّر معبِّر، فهو "للظَّرفيَّة المجازيَّة، وهي الملابسة"[2]؛ إذ يصوِّر زوجةَ الخليل ﷺ بأنَّها قد أقبلت على حالٍ من الدَّهشة، كأنَّها مغمورةٌ غارقةٌ فيها، على أيِّ تأويل من تأويلاتِ تلك الصَّرَّة العجيبة.

وهكذا تَلفُّ الأخبارُ العجيبة والبشائر العظيمة من يتلقّاها غالبًا مِن أصحابها في حالٍ مِنَ الدَّهشة، فلا يكادون يضبِطون سُلوكَهُم وأقوالهم وردود أفعالِهم.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿صَرَّةٖ﴾، ولطيفة تنكيرها:

آثارُ البشائر الكبيرة تتكاثر على أصحابها - وخاصَّةً النِّساء - فينبغي مراعاتُها

قوله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ يحتمل أن تكون امرأة الخليلِ ﷺ قد أقبلت متعجِّبة في جماعةٍ مِن صوَيْحِباتٍ لها، جِئْنَ معها يُشاركْنَها تَعجُّبها ببشارتها، أو أن تكون هي قد أقبلت في صَيْحَةٍ ورَنَّةٍ[3] وضَجَّة[4] وتأوُّهٍ[5]، وولولةٍ؛ إذ قالت: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 278 - 280.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 360.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 528.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 386.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 371.

﴿عَجُوزٌ﴾ [هود: 72]، وكذا أقبلَت في ضجيجٍ وجَلَبةٍ وثورةِ نَفْسٍ، حملتها عليها شدَّةُ وقْع البشارة، واستحضارُ الخَجَل مِن مواجهة المجتمع بالحَبَل والولادة، ويفيد التَّنكير هنا شدَّةَ الصّياح، وعِظَم التَّأثُّر.

وهكذا تتزاحم آثارُ البشائر الكبيرة على أصحابها، وخاصَّةً إذا كُنَّ نساءً، فلتُراعَ ظُروفهنَّ حينئذٍ، وليُرفقْ بهنَّ، وذلك من عطاء النَّظم الكريم وفوائده الدَّقيقة.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾:

أثـر حُـروفِ المعاني في بيانِ دقائِق المَعاني

(الفاء) في قوله: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ عاطفة للتَّرتيب والتَّعقيب، وفيها مَعْنى السَّببيَّة أيضًا؛ تُسَبِّبُ صكَّها وجهَها، وتُرَتِّبُهُ على إقبالها بِجَسَدِها أو باهتمامها، ترتيبًا مباشرًا حتّى لكأنَّهما حدثان متلازمان مُتَداخلان؛ ولذلك قد يكون في الكلام قَلْبٌ، فيكون المعنى: فصكَّت وجهها، وأقبلت قائلة: يا ويلتى... فإذا كان "صَكُّ الوجه هو لَطْمه تِلقائيًّا عند وُرود أمرٍ عجيب غير متوقَّع"[1]، فإنَّه التَّصرُّفُ الأوَّلُ في هذه الحال، وهو المناسب لوقع مثلِ هذا الخبر حينَ يُسمَع.

دلالةُ التَّعبير بفعل الصَّكِّ ماضيًا مضعَّفًا:

الإشارَةُ إلى شِدَّة وقْـعِ الـبِـشـارَةِ عليها

صكُّ الوجه: ضرْبُه باليد، أو لطمُه في غير قَصد، وعن ابنِ عبّاسٍ أنَّها "لَطَمَت، أو ضَرَبَت بيدِها جَبْهَتَها تعجُّبًا[2]"، "وهذا مستعملٌ في النّاس حتّى الآن"[3]، والَّذي حَمَلَها عليه "تلاشي أسبابِ الولد في عِلْمها بسبب العادة"[4]؛ حياءً من أن تَحيضَ، وتحبل، وتلد في هذه السِّنِّ الكبيرة[5].

وفي صَوْغ فِعل الصَّكِّ ماضيًا (صكَّت) دلالة على قوَّة الدَّهشة،

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 518.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 529.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 464.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 15.

والتَّضعيف فيه يصوِّرُ قوَّة الصَّكَّة؛ كنايةً عن شدَّة وقع البشارة على نفسها؛ حياءً من الحمل والوضع في سنِّها هذه، أو شدَّة ابتِهاجها وسعادتها بالبشارة، وتعجُّبها من عَظَمَتِها.

دلالةُ صَكِّ الوجه بالذّات:

الجمعُ بينَ شدَّة الفرَحِ بالبِشارَة، وشـدَّةِ الخجَلِ من كلام النّاس

في صكِّ امرأة إبراهيمَ ﷺ وجهَها بالذّات دونَ بقيَّة جِسْمِها دلالةٌ على أنَّ ذلك الصَّكَّ كان إلى الابتهاج والسُّرور أقرب، وفيه كنايَةٌ عَن شدَّة فرْحَتها وسعادتها بذلك الخبر الحبيب، وإنَّما كانت شدَّةُ وقعِه عليها في المقابل خَجَلًا مِن كلام النّاس، وإلّا فالصَّكُّ للفَضيحة يكون للخدِّ أو الفخِذ، ثمَّ إنَّ الوجه هو مقدَّم الرَّأس، وبه يواجَهُ النّاسُ[1]، فضَرَبَتهُ بأطراف أناملها تعجُّبًا واستهوالًا[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ﴾:

التَّأثُّر بالبِشارة قولًا وفعلًا

(الواو) في قوله: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ عاطفةٌ؛ إذ جمعت امرأةُ الخليل ﷺ بين الفعل والقولِ، فـ (صكَّت) و(قالت) كلاهما دليلُ شدَّة العَجَب، وشدَّة وقْع البشارة عليها.

دلالةُ التَّعبير بالقولِ ماضيًا:

التَّصريحُ بما في القَلْبِ مِن أثَرِ البِشارَةِ

التَّعبير بالقول ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ دليلٌ على قوَّة البشارة وشدَّة وقْعِها على نفسِها وقلبها وكيانها كلِّه؛ إذ إنَّها لم تتمالك نفسَها أن تحرَّكت مقبِلة بكيانها كلِّه، جسمِها واهتمامِها، وقد صكَّت وجهها، وقالت ذلك بألفاظٍ صريحَةٍ، وبصَوْتٍ مسموع، يحمل في نَبراتِه ما أُفعِمت به نفسُها، ففاض على لسانِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عَجُوزٌ﴾، ونكتة تنكيره:

وصْفُ ﴿عَجُوزٌ﴾ مشتقٌّ من العَجْز، ويُطلق على كِبر السِّنِّ؛ لِملازمة العجز له غالبًا[3]، والعجوزُ: هي الَّتي بلغت سنَّ العجز والقصور،

(1) فخر الدين قباوة، المفصّل، ص: 1845.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 464، وفخر الدين قباوة، المفصّل، ص: 1845.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 361.

ووزنه: فَعول؛ مبالغةً في اسم الفاعلِ مِن مصدر (عَجَزَ)؛ عُبِّر به عن اسْمِ الذّات المؤنَّث لتوكيدِ المُبالغَةِ؛ إذ اجتمع فيه العجزُ المانع من الولادة، والعُقْمُ الَّذي يتعذَّر معه الحَملُ[1]، وهو أدْخَلُ الأوصافِ في الحَيْلولة دون ولادةِ المرأة، فضلًا عن أن تكون عاقرًا، وفي تنكيرِهِ دعمٌ لتلك الإشارات المقصودةِ بوضوح في هذا الوصف، من إنكاره وبُغضه، واستيخامه واستيحاشه لدى النِّساء.

إيمانُ المؤمنِ الرّاسخُ بقدرة الله تعالى على إيجاد الأسبابِ، وعلى الإيجادِ مِن غير سببٍ ظاهرٍ

فهذا الوصف وإن كان ممّا تأنف المرأة الاتِّصاف به عادَةً؛ فإنَّ السَّيّدة سارة في هذا المقام توقَّعت أنَّها ستواجَهُ بكلام النّاس حولَ ولادتها في هذا السِّنِّ المتأخِّرة، فلا مجال لتزويقِ الكلام وتحاشي وصف العجوز، ولا وقْتَ للهروب من مواجهةِ الحقيقة.

نعم، هي امرأةُ نبيٍّ، لا تُنكِر قدرة الله ﷻ على حصولِ الأسباب متى شاء، ولا على فعل ما يشاء بلا أسبابٍ، وتَثِق في أنَّ الحمل والولادة حَتمٌ ما دام أمرًا نزل مِن عند الله سبحانه؛ لكنَّها بشرٌ، وقد عاشت لحظةً نفسيَّة ثقيلةً بين يَقينها بالقطع بحصول الولادة، وبين تَرَقُّبِها كلام النّاس.

وكأنَّها تريدُ أن تقول: "يا ليتكم دعوتُم دعاءً قريبًا مِن الإجابة؛ ظنًّا منها أنَّ ذلك دعاءٌ منهم لهما، كما يصدر من الضَّيف على سبيل الأخبار مِنَ الأدعية، كقول الدّاعي: الله يعطيك مالًا، ويرزقك ولدًا، فقالوا: هذا منّا ليس بدُعاءٍ، وإنَّما ذلك قول الله تعالى"[2].

نكتةُ حذفِ المبتدأ من قوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾:

تصويرُ شدَّة التّأثُّر بالبشارة

حُذِفَ المسندُ إليه من قول الله تعالى حكاية عن امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، والتَّقدير: أنا عجوز عقيم، ممّا أتاح لها بناءَ الجملة على التَّصريح بالخبر ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، والقذفُ به في صَدْرِ

(1) فخر الدين قباوة، المفصّل، ص: 1845.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 177.

الكلام مباشرةً؛ للوفاء بِحَقِّ المقام النَّفسي لديها، وتصوير صدمة الخبرِ وغرابة البِشارة، الَّتي فعلت بنفسها الأفاعيل، فقفزت إلى الخبر الأهمِّ: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

نكتةُ وصفِ العجوز بالعقم:

تعجُّبُ امرأةِ الخليلِ من حالِها أو تبدُّله

العقيمُ من النِّساء: الَّتي لا تلد، ومن الرّياح: الَّتي لا تُلقِح شجرًا، فهي الَّتي لا بركة فيها[1]، وليس فيها رحمة، ولا منفعة، وهي ريح الجَنوب، أو ريح الدَّبور، أو ريح الصَّبا[2]، وامرأة الخليل عليه السلام تستحضر موانعَ حملِها وولادتها، وتستدعي مانعَ العُقم، الَّذي لا يتَّسق مع البشارة.

وهي "لم تتعجَّب من قدرة الله أنَّه قادر على أن يَهَبَ الولدَ في كلِّ وقت، ولكنَّها تعجَّبت لمّا رأت العادة في النِّساء والرِّجال أنَّهم إذا بلغوا المبلغ الَّذي كانوا هم عليه؛ لم يلدوا، فتعجُّبُها أنَّها تلد في الحال الَّتي هي عليها، أو أن يُردّا إلى حال الشَّباب، فعند ذلك يولَدُ لهما، وكلاهما عجيبٌ"[3].

دلالةُ بناء ﴿عَقِيمٌ﴾ على (فعيل):

سعَةُ قُدْرَةِ الله تعالى وعُمومُها

في بناء وصف ﴿عَقِيمٌ﴾ على (فعيل) دلالةٌ على بُلوغِها في العُقم وعدم الاستعداد للحَملِ والإنجابِ مبلغَ الاستحالَةِ، فَفي بِنائِها وصفَ ﴿عَقِيمٌ﴾ على صيغة المبالغة (فعيل) كنايةٌ عن شدَّة عَجَبِها لدلالة الصّيغة على ثبوت الوصف فيها ودوامه، ولكنَّ قدرةَ الله تعالى عامَّةٌ.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿عَقِيمٌ﴾ دون (عاقر):

العُقمُ أمرٌ ثابتٌ، والعقر عارِضٌ

توصف المرأة الَّتي لا تلد بأنَّها (عقيم)، وبأنَّها (عاقر)، ووجه الاختلاف بين اللَّفظين حاصلٌ في الصّيغة، فـ (عقيم) على وزن

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 372.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/ 157.

(فعيل)، وهو وزن للأشياءِ الثّابتة الدّائمة، وهو أنسَبُ هنا لحالِ سارةَ زوجةِ إبراهيمَ ﷺ؛ لكون حالِها - في تقديرات البشَر - ميؤسًا منه، أمّا (عاقر)؛ فهو على وزن (فاعل)، وهو وزن قابلٌ للزَّوال عن صاحبه، ولذلك عُبِّر به تعالى عن امرأة زكريّا: ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ [آل عمران: 40]؛ لقوله تعالى في موطنٍ آخرَ من القرآن: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ [الأنبياء: 90]؛ إذ العاقر قابلةٌ للإصلاح والعلاج، وعدمُ إنجابِها أمرٌ عارضٌ، ويؤكِّد المعنى اللُّغويَّ للَّفظين هذا المعنى؛ إذ إنَّ "أصل (العُقْم): اليَبَسُ المانع من قبول الأثر"[1]، والرّيحُ العقيمُ: الَّتي لا تلقح شجرًا، ولا تُنشئُ سَحابًا ولا مَطَرًا، وداءٌ عقام: لا يُبرأ منه[2]، أمّا (العقر)؛ فقد شُبِّه بالجُرح، وأنَّه شيءٌ ينزل بالمرأة من غيرها، وليس هو من فِعْلِها بنَفْسِها[3]، ومن هنا فَهو قابلٌ للعلاج.

عِلَّةُ فصل قوله: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ عمّا قبله:

أثـرُ الاستئنافِ الـبـيـانيِّ في مُتابعَةِ تَشَوُّق القارئ والمتَلَقّي

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ عن قوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾؛ لكونِه استئنافًا بيانيًّا، فيكون بين الجملتين شبه كمال الاتِّصال؛ وذلك لجَريان هذا الحوار على طريقةِ المُقاولة القرآنيَّة؛ إذ إنَّها قالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾، وهذا يُثير سؤالًا حاصِلُهُ: وبِماذا ردّوا عليها؟ فجاء قول الله تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾؛ جوابًا عن هذا السُّؤال المتوقَّع من المتلقّي.

دلالةُ التَّعبير بفعلِ القول ماضيًا:

الـكـلامُ الطَّيِّبُ يَشفي

في التَّعبير بفعل القول في جملة: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه قد جاء قولًا فصيحًا صريحًا؛ فعالج نفسَها، وأزال عجَبَها، وسكَّن روعها.

---

(1) الراغب، المفردات: (عقم).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقم).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقر).

وصوغُ فعلِ القولِ ماضيًا في جملة: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ دلالةٌ على مباشَرة هذا القول قولَها، ومجيئه بُعَيدَه على سبيل التَّحقيق والحصول.

وفي إسناد فعل القول إلى ضمير جماعةِ الضَّيف المكرمين في جملة ﴿قَالُواْ﴾؛ إشارة إلى عِنايَتِهم جميعًا بتوجيهِ هذا القول لها، وعلى "اتِّحاد كلمتهم"[1]، حتّى وإن كان قائلُه أحدَهم.

معنى (الكاف) في ﴿كَذَٰلِكِ﴾:

(الكاف) في قول الضَّيف المكرمين لامرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ كاف التَّشبيه، أي: مثل هذه البشارة الَّتي بشَّرناكم بها قال ربُّك: "إنَّك ستلدين غلامًا"[2]، وهو سبحانه الَّذي كلَّفَنا بإبلاغكم إيّاها، وليست هذه البشارة مِن تلقاء أنفُسِنا.

الملائكة الكرام لا يزيدون شيئًا، ولا ينقصون ممّا كلَّفهم الله تعالى به

دلالةُ التَّعبير بالإشارة ﴿كَذَٰلِكِ﴾، ولطيفة البُعد فيها:

الإشارةُ في قول الملائكة: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ تعود إلى التَّبشير بالغلام[3]، وعلى الحُكم به[4]، ولأنَّه من قِبَل الله تعالى، وهو "على علمٍ بالحالِ الَّتي أنتِ عليها، فقد بُشِّرتِ بذلكَ لا عن جهلٍ"[5].

عطاء الله عظيمٌ، وخاصَّةً إذا كان ولدًا لوالِدَيْنِ مُسنَّيْنِ

وجاءَت الإشارةُ للبُعْدِ ﴿كَذَٰلِكِ﴾؛ لإرادةِ التَّبجيل لِحُكم الله تعالى، والتَّعظيم لبشارته عبدَهُ إبراهيمَ عليه السلام وامرأتَه، والتَّنويه بنعمة الولدِ، وخاصَّةً في سنِّ والديه الطّاعنَيْنِ في السِّنِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ القول ماضيًا:

القول في جملة: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾، بمعنى: الأمر، أي: بهذا أمر ربُّكِ، وحَكَم، وقضى، وذلك أنَّ قوله ﷻ أمرٌ نافذ، فـ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ

أقوالُ الله تعالى أوامرُ نافذةٌ محقَّقةُ الوقوعِ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 461.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 178.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 361.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 22.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 386.

﴿أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]، والمعنى: أنَّه من جهة الله تعالى، فلا تتعَجَّبي[1].

وصوغُ فعلِ القول ماضيًا في جملة: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ دلالةٌ على القَطْع بتحقُّقه، وإشارة إلى أنَّه مقدَّرٌ منذ الأزل، "فإنَّها شؤون يبديها، ولا يبتديها"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾:

لا تُستَعظم بِشارةٌ مهما عظُمت من الرَّبِّ الكريم سبحانه

في التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في جملة: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ دعمٌ؛ لتطمين السَّيِّدة سارة بتلك البشارة بِتذكيرها بعطاءات الرَّبِّ الكريم سبحانه، وإزالةُ وجه العجب عن البشارة بالولد؛ إذ هي من عطاءات الرَّبِّ المحسنِ المربّي، المتعهِّد لِخلقه ﷻ بالرِّعايةِ.

دلالةُ الإضافة في ﴿رَبُّكِ﴾:

العبدُ أدرى النّاس بعظيم عطاءات ربِّه تعالى له

الإضافةُ في ﴿رَبُّكِ﴾ خطابًا لامرأة إبراهيم عليه السلام تَسْتَلُّ مِن نفسِها آثارَ العَجَب؛ لتَغْرِس مكانَه الطُّمأنينة والثِّقة؛ لأنَّه ربُّها الَّذي عَهِدَت منه في بيت النُّبوَّة معاني التَّربية والعطاء الكريم، فهي بذلك أدرى، ولإدراك عظيم عطاياه أبصرُ.

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ عمّا قبله:

بيانُ علَّةِ البشارة

فُصِل قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ عن قوله: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾؛ لوقوعه منه منزلة السَّبب من المسبَّب، فالجملة تعليل لما قبلها[3]، أي: "فأقْبَلي قولَه، ولا تتوهَّمي عليه خلاف الحكمة، ولا تتوهَّمي عليه الجهل بعدم قبولك الولادةَ"[4].

(1) فخر الدين قباوة، المفصّل، ص: 1845.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 327.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 106.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 42.

بيانُ مرجعِ الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾، وبلاغة تتابع التَّوكيدات:

قد يجتمع من مقتضيات التَّوكيد ظاهرُ حالِ المخاطَب، وعظمةُ الخبرِ في ذاتِه

الضَّميرُ المنصوب في قولِ الملائكة الكرام: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يرجع إلى الرَّبِّ المضاف في قولهم: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾، وقد اقتضى ذلك الحشدُ من التَّوكيدات - بـ (إنَّ)، وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، وتعريف جزأي الجملة، والجملة الاسميَّة - شدَّةَ تعجُّب امرأة الخليل ﷺ من جهة؛ لأنَّها لم تكُن تُنْكِر حقيقةً، وإنَّما ظاهر تعجُّبها كانَ كأنَّه إنكارٌ، فاقتضى التَّوكيدَ، وغرابةُ الأمر في ذاته من الجهة الأخرى، وجلالُ المقام - بغضِّ النَّظر عن حال السَّيِّدة سارة - حسَّن التَّوكيد، فالبُشرى كبيرة والعطيَّة عظيمة.

دلالةُ القصْرِ، ونُكتةُ التَّعبير بضمير الفَصْلِ ﴿هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾:

اختصاصُ الله تعالى بكمال الحكمة وكمال العلمِ

في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وذلك بتعريف جزأي الجملةِ، وهو الضَّمير المتَّصلُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾، وخبرُ إنَّ، وهو ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وذلك يُفيدُ قصر الحكمةِ والعلم الكاملَين على الله تعالى قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ إذ لا يشاركُه أحد فيهما، وهما لا تتجاوزانِه إلى غيره أصلًا، وإن اتَّصف أحدٌ من المخلوقين؛ فإنَّما هو بأصل الحكمة والعلم، لا بكمالهما، ثُمَّ إنَّه لا يصلُ إلى المخلوقين شيءٌ منهما إلّا بإمداده تعالى وبكرمه.

وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ لا يدلُّ على القصْرِ؛ إذ القصرُ مستفادٌ من تعريف طرفَي الجملةِ، ومن المتقرِّر في القواعدِ: أنَّه لا يجتَمِعُ في الجملةِ طريقا قصرٍ، فيكون ضميرُ الفصلِ مفيدًا توكيدَ القصْرِ وتقويتَهُ.

معنى (أل) في ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾:

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الَّذي يُدبِّر الأمور بحكمته، فيوقِعُ الأمرَ حيث أراد، ومتى أراد، كما أراد، و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الَّذي يَضبط الأمور بِعلمه، ويزنها، ويُقدِّرها بِحكمته[1]، و(أل) في ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ لاستغراق

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 518.

الأوصافِ، أي: إنَّ كلَّ حكمة وكلَّ علمٍ إنَّما هو للرَّبِّ الكريم سبحانه، ومن حِكَمَته تعالى، وأنَّه تعالى هو الَّذي أفاض على عباده من حكمته حكمةً ومن علمهِ علمًا.

كلُّ أفعاله تعالى مقرونةٌ بحكمته المطلقة، وكلُّ تقديراته سبحانه بِعلْمه المحيط

ففي التَّعبير بالحكمة تذكيرٌ للسَّيِّدة سارة بأنَّ أفعال الحكيم سبحانه إنَّما تَصْدُر بحِكمةٍ حكيمة، وتأتي بتدبير سديدٍ لا اختلال فيه؛ لأنَّه "الحكيمُ في تدبيرِه خَلْقَه"[1]، وإنَّ أفعال العليم سبحانه تصدر بِعلمٍ "لا يخفى عليه حالُها مِن العجْزِ والعقم"[2] وغيرهما، ولو علم العباد ذلك وعَمِلوا عليه؛ لَما رابَهُم، ولا أرهقَهُم شيء.

دلالةُ صوغ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ على (فعيل):

معرفةُ العبد بحكمة الله تعالى وعِلمه يُطَمئِنُه إلى جمالِ قضائه وقدره

في صوغ اسمي الله تعالى ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ على صيغة (فعيل) دلالةٌ على بلوغهما بالنِّسبة إلى الله تعالى مبلغَ التَّمام والكمال؛ بحيثُ يَقْصُر عن بلوغ مرتبةِ كمالهما كلُّ مَن سواه، وذلك يَدعم البشارة، ويبعث بالطُّمأنينة إلى قلب السَّيِّدة سارة في هذه اللَّحظات العصيبَةِ، ويُطَمئِنُها إلى جمال قضائهِ وقدَرِه سُبْحانَه.

بلاغةُ تقديم ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ على ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾، ووجه المناسَبة بينهما:

الحكمة والعلم يلتقيان في التَّقدير والتَّدبير

تقديم الحكمة على العِلم في قول الضَّيف المكرمين: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، احتراسٌ مِن ذهاب تفكيرِ العبد مذهبَ الشُّبهة في دقَّة حكمته تعالى، ودلالةٌ على أنَّ أفعال الحكيم سبحانه منضبطة بضوابطِ الحكمة، صادرة بِعلمٍ تامٍّ.

ومن الجليِّ تمامُ التَّناسُب بين الحِكمة والعِلم؛ لأنَّ كلًّا منهما يتآزر على ضبط التَّقدير والتَّدبير، والتَّقديرُ والتَّدبير يَفتَقِران إلى العِلم المُحيط، والحكمة السَّديدة الرَّشيدة.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 531.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 361.

توجيه المتشابه اللَّفْظيّ:

المتشابه اللَّفظي يـوفّي المقـامـاتِ والـسّـيـاقـات القرآنيَّة حقَّها من المطابقة

قال الله تعالى هنا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، وقال في سورة هود: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: 73]، وذلك لأنَّ الحكاية هناك أبسطُ، فذَكَر الملائكةُ ما يَدفع الاستبعادَ بقولهم: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [هود: 73]، ثُمَّ لمّا صدَّقت؛ أرشدوهما إلى القيام بشُكْرِ نِعم الله تعالى، وذكَّروهما بنعمتِه بقولهم: ﴿حَمِيدٞ﴾ [هود: 73]، فإنَّ الحميد هو الَّذي تتحقَّق منه الأفعالُ الحَسَنَة، وقولهم: ﴿مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: 73] إشارةٌ إلى أنَّ الفائق العالي الهِمَّة يحمده لنفسه ولفعله الجميل.

وهنا - في سورة الذّاريات - لمّا لَم يقولوا: أتعجبين؛ أُشيرَ إلى ما يَدفع تعجُّبَها مِن التَّنبيه على حُكمه وعِلمه، وفي ذلك لطيفةٌ بديعةٌ، وهي أنَّ هذا التَّرتيب مراعًى في السّورتين، فالـ ﴿حَمِيدٞ﴾ [هود: 73] يتعلَّق بالفعل، والـ ﴿مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: 73] يتعلَّق بالقول، وكذلك ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ هو الَّذي فِعله، كما ينبغي لِعلمه؛ قاصدًا لذلك الوجه، بخلاف من يَتَّفق فِعلُه موافقًا للمقصود اتِّفاقًا[1].

وجهُ ذكر قصَّة إبراهيمَ والبشارةِ بالولد في هذا السّياق:

التَّنبيهُ بالأحوالِ الـدُّنـيـويَّـة على الأمور الأخرويَّة

وجه ذكر قصَّة إبراهيم والبشارة بالولد في هذا السّياق: أنَّ في قصة حضورِ الملائكة عند إبراهيمَ وزوجِه عبرةً بإمكان البعث، فقد تضمَّنت بشارتَها بمولودٍ يولد لها بعد اليأسِ مِنَ الولادة، وذلكَ مثلُ البَعث بالحياة بعدَ المماتِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوجس والإضمار والخاطر والهاجس:

الـوجـسُ خاطرٌ يحفُّهُ الخوفُ

الوجسُ: حالٌ تحصُل من النَّفس بعد الهاجس؛ لأنَّ الهاجس

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 178.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 356.

مبتدأُ التَّفكير، ثُمَّ يكون الواجِسُ الخاطر[1]، لكنَّه خاطرٌ مشوبٌ بخوف[2]، والفزع يقَعُ في القلب، أو في السَّمعِ من صوتٍ وغيره، ومعنى أوجس: وقع في نفسِه الخوفُ[3]، فهو أخصُّ من الإضمار عمومًا[4]؛ لأنَّ الإضمار: كِتمانُ الشَّيء وإخفاؤه مطلقًا، يقال: أضمر الشَّرَّ، وأضمر له الشَّرَّ؛ إذا أخفاه، وأضمَر في نفسه أمرًا، أي: عزم عليه بقلبه[5]، أمّا الخاطر؛ فهو ما يخطر في القلب من تدبيرٍ أو أمر، فالخاطِرُ: الهاجس، وقد خَطر بِباله وخطر على باله؛ إذا ذَكَرَهُ بعد نِسْيان، وذلك أنْ يمرَّ بقلبه بسرعة لا لبثَ فيها ولا بُطْء[6]، والهاجِسُ: الظَّنُّ، وما وقع في الخَلَدِ والقلبِ من همٍّ وأمر، وما يهجس في الضَّمائر، وما يدور فيها من الأحاديث والأفكار، وحديث للنَّفس في الصَّدر، مثل الوسواس[7]، ومن هنا ناسب لفظُ (أوجس) سياقَ الآية؛ لِما فيه من تخصيصٍ للمَعْنى بالخاطر المحفوفِ بالخوف، ولذلك ناسب أن يعقبَهُ لفظُ (خيفة).

(1) لسان العرب، لسان العرب: (وجس).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (وجس).
(3) الخليل، العين: (وجس).
(4) لسان العرب، لسان العرب: (وجس).
(5) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ضمر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (خطر).
(7) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، والزبيدي، تاج العروس: (هجس).

الجُزْءُ
السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"